

عفاف على

تميمة القلب

رواية

الطبعة الأولى ديسمبر 2020

فارس الإبداع العربى
الدورة الأولى ديسمبر
2020

تميمة القلب

بطاقة الكتاب

عنوان المؤلف	تميمة القلب
المؤلف	عفاف على
التصنيف	رواية
رقم الإيداع	2020 - 23116
الترقيم الدولى	978-977-6835-55-9
رقم الإصدار	691 الطبعة الأولى 2020
عدد الصفحات	96 صفحة
الإخراج الفنى	مؤسسة النيل والفرات

رخصة مزاولة مهنة:58365 - سجل تجاري: - 13242 / 2017 - بطاقة ضريبية: 35-01-572
عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018
هاتف:01011256943 - 01116202218 - 01202541192 تليفاكس:020554372901
nagyegy200064@gmail.com النيل والفرات
alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat
المقر الرئيسي:ج.م.ع محافظة الشرقية - العاشر من رمضان - مجاورة 13 - امام سنتر الـ13 - عقار 304

مؤسسة النيل والفرات
مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع مصر
فارس الإبداع العربى
منظمة صدى المستقبل الإعلامية ليبيا
صدى المستقبل SADA AL-MOSTKBL

الإهداء

أهدي روايتي هذه إلى كل من ساندني وآزرني

ودعمني و مد لي يد العون لتظهر حروفي إلى النور

كما أهدي حروفي لصديقتي الأديبة الراقية المدققة اللغوية الدكتورة

نجاح العالم السرطاوي

التي تابعتني وآزرتني وشجعتني ووثقت بمقدرتي في كتابتي ودققت حروفي أكثر من مرة وقدمت لي النصيحة والإرشاد وقدمت لروايتي فلها مني كل الشكر والمحبة والتقدير والعرفان

عفاف علي

المقدمة :

رواية : " تميمة القلب "

الكاتبة الأُستاذة: "عفاف علي"

إنه لمن دواعي سروري و مما أسعدني أن تأتمِنيني على تدقيق روايتك الرائعة و كتابة التقديم لها أيتها الأديبة الماهرة الأستاذة "عفاف علي" حفظك الله

روايتك من أجمل الروايات و من أروع الكتب التي تشرفت بتدقيقها و استمعت بكل حرف فيها و قد أسعدني ما وجدت فيها من تميز في أهدافها الاجتماعية المترابطة و معانيها المتناسقة السامية مع غزارة في الإبحار و هطول في الأفكار و تمكن في المبنى و جودة في المعنى بأسلوب سلس ممتع شيق بديع رقراق

فكانت نظراتي تتسارع لترى ما بعد الأحداث من توقعات، فيحلق خيالي مشدودًا منجذبًا إلى هذا الإمتاع و هذا الإبداع و إلى ما سيأتي من أحداث متتالية و مفاجآت متتابعة لا تخطر على بال و هذا يدل على ما تمتازين به من سعة في خيالك و ثروة لغوية غزيرة لديك لبناء هذه الرواية الاجتماعية الهادفة الجادة

ليستفيد منها كل فرد في الأسرة و في المجتمع و إبراز القيم المعنوية فيه

تمعنتُ في كل موقف من المواقف لأستمتع بالبداية ثم بالحبكة المدهشة و الأحداث المتسلسلة فيها و لأستشف الأهداف من هذه الروعة و هذا الإبداع

فوجدت أنك قد وظفت كلًا من الشخوص في مكانه الملائم و أسندت لكل منهم الحوار الذي يناسب صفاته تمامًا بكل فصاحة و رقيّ و بيان

وقد أدهشني ما في هذه الرواية من عرض مميز و حوار راقٍ ممتع جميل و نهاية جميلة غير متوقعة تكشف عن بعض التصرفات غير المسؤولة لبعض الأشخاص في الأسر بدافع الأمراض النفسية و العقد الشخصية التي تؤدي بهم إلى إيذاء أقرب الناس إليهم و الإضرار بهم إلى درجة تدمير مستقبلهم و تشتيتهم عن أهلهم منذ ولادتهم ليعيشوا بعد ذلك حياة مريرة و ظروفًا قاسية يجهلون نسبهم و لا يعلمون شيئًا عن أهلهم و لا إلى أي الأسر ينتسبون مما يؤدي إلى ضياعهم بعيدًا عن الأهل و الأقارب

وقد تميز الأداء و السرد للأحداث في الرواية بكل روعة و حرفيةٍ و ائتلاف دون إخلال أو اختلاف، يشف عن الحكمة و النصيحة و العبرة و التحلي بالحذر و الحيطة مما قد يتعرض له الناس من أفعال فاسدي الأخلاق و الأشرار بأسلوب ممتع مشوق جذاب قل نظيره و ندر مثيله في هذا الزمان

تميزت روايتك بالأسلوب الراقي الرقراق و الألفاظ الجزلة القوية بمتانة في المبنى و دقة في المعنى للتحفيز على عمل الخير والتنفير من عمل الشر بإرساء القواعد و المبادئ و المُثُل و القيم المعنوية للإنسانية التي يحث عليها ديننا الإسلامي الحنيف لتتبلور فيها الأهداف بشكل شامل و تفصيل وارف جميل دون إسفاف و من ذلك الرضا بما قسمه الله سبحانه للإنسان من رزق في الأموال و في الأولاد و عدم نكران فضل الله سبحانه، و عدم التبرم بالأبناء إذا كانوا مشوّهين أو لديهم إعاقات، بل على العكس من ذلك ففي تربيتهم و تعليمهم و تهذيبهم الثواب الكبير والجزاء العظيم عند الله سبحانه

أهنئك على ما خطّ يراعك في هذا الإنجاز الرائع الذي زاد الأدب تميزًا و رقيًا و بهاء ًتمنى أن يحقق الله أحلامك و آمالك بالمزيد من هذه الروائع و الإنجازات

كل الشكر و التقدير لك بأن شرفتِني بتدقيق روايتك و أن أوكلتِ لي كتابة هذه المقدمة لها عسى أن تنول رضاك أيتها المتميزة

وفقك الله و رعاك و على طريق النجاح سدد خطاك

الأديبة الناقدة و المدققة اللغوية الدكتورة

نجاح العالم السرطاوي

عضو اتّحاد الكُتّاب و الأدباء الأردنيين

تميمةُ القلبِ

وسط ضوضاء الشوارع، في مكان مظلم ومقفر من المارة، وجدت طفلة وحيدة بلا أب ولا أم، بقلب خائف يرتجف من وحشية البشر، تصرخ بقوة في وجه الشر.
أكرمها الله - سبحانه وتعالى - ومر بجوارها شخص من سكان الحي، سمع صوتها فأسرع نحوها، وجدها ترتجف من الخوف، حضنها وهدأ من روعها.
كان رجلًا طيب القلب عطوفًا فقيرًا، يعمل إمامًا في المسجد.
كان ذاهبًا لصلاة الفجر. حملها بين يديه، وذهب مسرعًا إلى زوجته، التي لم تنجب ولم ترزق بطفل يسعدها، ويدخل السرور إلى قلبها المريض.
صرخت المرأة في وجه زوجها،

- من أين جئت بهذه الطفلة أيها العجوز؟.

ضحك في وجهها، ثم قال لها:

- لقد وجدتها بجوار القمامة.
- القمامة .. كيف هذا يا رجل؟! أخبرني الحقيقة.

جلس العجوز وزوجته، وبين أيديهم طفلة جميلة ذات الأسبوع الأول من عمرها، تنتظر مصيرها المجهول.
كانت ترتدي فستانًا جميلًا، تشبه الاميرات. وبعد حوار طويل بين الزوجين، ابتسمت الزوجة، وقالت:

- إذن أنتَ سيكون اسمك أبا تميمة، وأنا أصبحت من اليوم أم تميمة.

ابتسم الزوج لزوجته وقال:

- لماذا اخترت لها اسم تميمة؟.

أجابته الزوجة:

- لأن وجودها معنا فيه بركة وسعادة، ولأنها ترتدي تميمة زرقاء؛ لكنني سأنزع من رقبتها تلك التميمة، وأضع في رقبتها عقدًا عليه صورتي.

نزعت أم تميمة من رقبتها العقد، ووضعته في رقبة صغيرتها التي لم تلدها، واحتضنتها بشوق وحب وحنان، حتى أنها شعرت بألم الولادة يعتصر قلبها، وينزل الحليب من صدرها. شعر الشيخ حسن بشيء من السعادة، لكنه مزج بالخوف، فهو لم يبلِّغ عنها في قسم الشرطة.

ربما تكون ضحية لعملية خطف، خصوصًا وأن ملابسها جميلة وأنيقة، مع أنه شعر بأنها لقيطة، وأن تلك الفكرة كانت مسيطرة على عقله، أو ربما لخوفه من فقدها.

فقد تعلقت بها زوجته، فوجودها سيعيد لهما السعادة، فقرر أن يهرب بها بعيدًا.

ومع أول ضوء للنهار، حمل أبو تميمة زوجته وطفلته، واتجه بهما نحو الريف، إلى بلدٍ لا يعرفهم فيه أحد.

اختار أبو تميمة قرية صغيرة، وقرر أن يشتري بيتًا بسيطًا؛ ليسكن فيه هو وأسرته، وفتح دكانَ بقالةٍ في بيته، وعاش بين الفلاحين.

كانت النساء في القرية تتحدث عن أم تميمة:

- كيف لامرأة سوداء أن تنجب طفلة بيضاء مثل الحليب لها عيون ملونة تشبه السماء في زرقتها؟!.

كان شعر تميمة يشبه شعاع الشمس، لجمالها تنجذب العيون، يستنكرون أن تكون هذه؛ ابنة لرجل عجوز مثل أبي تميمة، ولكن لا أحد يتكلم. ومر عامها الأول كاملًا عليها بين أب محب وأم ودود.

في عامها الأول اكتسبت جمالًا مهيبًا، فهي ليست فقط؛ بيضاء ذات أنف صغير، وشعر ذهبي وعيون ملونة، لكنها كلها حنان وحب وسلام، كانت تحتضن أم تميمة بشوق؛ كأنها تدفع ثمن عطف أم تميمة عليها، فكلمة ماما وبابا غيرت الحياة في عيون الرجل وزوجته.

وكلما مر عام على هذه الأسرة تزداد سعادتهم، لقد أصبحت بهجة البيت وفرحته، ومرت الأعوام سريعًا، وتلاحقت عامًا بعد آخر، وكبرت وسط حنان أم وحماية أب.

لقد عاشت وسط القرية كفتاة ريفية عادية، حتى جاء وقت دخولها إلى المدرسة، وتغيرت الأحوال وتبدل كل شيء أمام الشيخ حسن، فليس لديه أوراق تثبت أنها ابنته، وليس لديه شهادة ميلاد لها.

لجأ الشيخ حسن إلى رجل ذي نفوذ وسلطان وكلمة، معروف عنه مساعدة الفقراء والمحتاجين، قص عليه قصة طفلته، فأشفق الرجل على تلك الطفلة، وجهز لها شهادة ميلاد باسم (تميمة حسن).

ودخلت المدرسة مثل أطفال القرية، وأصبحت تلميذة مجتهدة، وعندما بلغت السابعة من عمرها، كانت مختلفة عن فتيات

القرية؛ فهي أكثر التزامًا بالعادات والتقاليد، وأكثر طاعة لأبيها وأمها ومجدة ومجتهدة، كانت تعمل مع أبيها في الدكان، وتساعد والدتها في البيت.

والغريب أنها أيضًا متفوقة في دراستها وحفظ القرآن الكريم، كأنها تكفّر عن سيئات؛ تلك المرأة التي ولدتها، ثم ألقتها في الشارع بجوار مسجد وقت الفجر، لم تهتم حتى بمن سيلتقطها!.

ومرت الأعوام عليها؛ وهي مثل أصدقائها، تلهو قليلًا وتذاكر كثيرًا، حتى وصلت للثانوية العامة.

لقد أصبحت عروسًا جميلة، كل شباب القرية يحلم بها، في كل أسبوع يتقدم لها أكثر من شخص، والأب يرفض؛ فهو يريد أن يكمل لها تعليمها، وهي تريد أن تصبح طبيبة قلب ماهرة.

في هذا الوقت مرض أبو تميمة مرضًا عضالًا، وعجز عن العمل، واضطرت تميمة لترك المدرسة ونزع ثوب الطفولة، وارتدت ثوب المسؤولية ومواجهة الحياة.

كانت هي المسئولة عن والدها المريض وزوجته، كأنها تدفع ثمن عطفهم عليها، فخرجت لسوق العمل؛ وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، تبيع الطعام في حانوت أبيها، ثم تعود للبيت وهي تحمل في يدها علاجًا وطعامًا لوالديها.

لم تستطع تحقيق حلمها، فالعلم ليس للفقراء، فدراسة الطب تحتاج للكثير من المال، وهي فقيرة لا حول لها ولا قوة.

وفي إحدى الليالي المظلمة، مات أبو تميمة بعد صراع استمر عامًا مع المرض، وتركها مرة أخرى وحيدة، ولكن هذه المرة ترك لها أمًا ترعاها وتحميها، لم تبكِ تميمة بل ذابت من الحزن، فهي مازالت طفلة في ريعان طفولتها، تحولت فجأة لفتاة لابد لها

أن تتحمل المسؤولية كانت تخشى على أمها من شدة الحزن؛ فقد كانت أم تميمة تبكي على زوجها في الليل قبل النهار.
اعتادت تميمة أن تخرج للعمل في الصباح الباكر، ثم تعود في المساء، وفي يدها بعض الطعام الذي تأكله هي وأمها العجوز.
تعلمت من أمها العطاء؛ فكانت تعطي كل اهتمامها لمستقبلها ومستقبل والدتها.
بحثت عن عمل آخر؛ يساعدها بجوار دخل الحانوت، فالدكان به بضائع قليلة، تعلمت أن تجمع القرش على القرش، وأن تحتفظ بتلك الأموال، حتى اشترت آلة خياطة، وبدأت في خياطة الملابس والمفروشات.
لقد أصبحت في السابعة عشرة من عمرها؛ لكن على وجهها معالم الحياة، كانت في هذه الفترة سعيدة؛ لأنها حققت أول هدف لها، فهي تمتلك حانوت والدها بجوار مشروعها الخاص. - حلمت أن تفتح مشغلًا للخياطة، حلمت كثيرًا بالمستقبل، لكن السعادة ليست من حظها
لم تعد أم تميمة تشعر بالسعادة بعد وفاة زوجها.
ففي إحدى الأيام مرضت، وأصاب عقلها الهذيان؛ من شدة حزنها على زوجها.
كانت تقول لتميمة في بعض الأوقات: إنها ليست أمها، كانت تتحدث عنها بكلام غير مفهوم، جعلتها تنهار من الحزن عليها.
لقد ظنت أن أمها قد جنت؛ من المرض والحزن.
كثر الكلام في القرية، وبدأت النساء يتحدثن عنها بالسوء، وبدأت الذئاب البشرية تعوي عليها.

وفي ليلة من الليالي، جلست بجوار أمها بعد أن أطعمتها وأعطتها الدواء، وبدأت في تهذيب وتنظيف شعرها.
فجأةً خطفت أم تميمة العقد من رقبتنا، وقالت لها:
- هذا عقدي وأنتِ لصة؛ قد سرقتِه مني، أنتِ لست ابنتي.
سقطت ورقة من العقد، فأمسكت بها وفتحتها؛ وقرأت ما كُتِبَ فيها بخط والدها رحمه الله:
(بسم الله الرحمن الرحيم، أنا الشيخ حسن، إمام المسجد، وجدت طفلة صغيرة، جميلة الملامح، كانت ترتدي فستانًا أبيض، وتميمة زرقاء، فأخذتها وجعلتها ابنتي، فزوجتي عاقر لا تنجب والسلام عليكم)
تميمة لم تبكِ أو تنهار؛ كأنها تعلم حقيقة هذا الأمر، فهي جميلة وبيضاء؛ وهذا الرجل وزوجته أصحاب بشرة سوداء.
خبأت الرسالة في صدرها، ثم أكملت تسريح شعر أمها، واحتفظت بالكلام.
بحثت عن فستانها الأبيض، أو تلك التميمة الزرقاء، حتى عثرت عليهما في صندوق قديم متهالك، التميمة والفستان ليس فيهما أية علامة أو دليل.
باتت ليلتها، ولم يغمض لها جفن، كل ما يدور في فكرها: من تكون هي؟.
قررت أن تترك القرية، وترحل للبحث عن أمها الحقيقية، تلك المجرمة التي نُزعت من قلبها الرحمة والحب لطفلتها.
في الصباح الباكر، استعدت للرحيل، أحضرت طعام أمها، ثم ذهبت لتطعمها وترحل.

لكن أم تميمة لا تجيب ولا تحاول النهوض من سريرها، لقد ماتت أمها؛ كما مات أبوها من قبل، ماتت بعد أن كشفت سرها، تركاها وحيدة وسط ضوضاء القرية.
لأول مرة تبكي؛ بل تصرخ؛ ليسمع العالم صدى حزنها، لقد شاركت تميمة في ضوضاء الشارع وسلبها الحزن جمالها، ففقدت الأمل في المستقبل، وبدأت تشعر بالضياع والخوف من المستقبل.
كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وعلى ملامح وجهها الجميل علامات الفقر واليتم والاحتياج، لم يكن يعطف عليها غير شخص لا تعرفه؛ يترك لها بعض الأموال في ظرف أمام بيتها.
لكن القوة التي تملكها في قلبها الصغير، جعلتها تخرج سريعًا من حزنها، ووقفت تتحدى ضعفها، وعادت تعمل وتساعد نفسها دون الاهتمام، بكلام النسوة في القرية.
كانت تخشى الوقوع في الخطأ، تسير على خط مستقيم، رسمته بألم قلبها ودموع عينيها.
في إحدى ليالي الشتاء القارسة، هجم السيل والبرق على القرية، فدمرت الأمطار الغزيرة المساكن، وأغرق السيل الزرع، وشرد الأسر والأهل، وقفت عاجزة بلا مأوى ولا سكن، ثيابها رثة ومبللة، بيتها محطم، ضاع كل شيء في البيت والحانوت.
وقفت تنتظر العطف أو الشفقة من أحدهم عليها، لكن أهل القرية فقراء.
في الجهة الأخرى من القرية، منزل ضخم لم يصل له السيل، يوجد فيه رجل عجوز في الأربعين من عمره، يملك المال الكثير، وليس لديه أبناء أو أهل، كان يعرف والدها ويساعده. أخبرتها

امرأة من جيرانها، أن تذهب إليه؛ وتطلب مساعدته، فهو يبحث من مدة عن فتاة يتيمة، تعيش معه، ويتبناها كابنة له.
- كان رجلًا محمود السيرة، رائع الأخلاق والقيم، كان كل حلمه أن يجد فتاة أمينة، طيبة القلب؛ لتخدمه وترعاه مقابل المال، لم يطلب منها سوى أن تساعده على الحياة، ثم تقوم بدفنه إذا مات.
لمعت عينها بالدموع، عندما طلب منها الرجل أن تعيش في بيته، لقد كانت صاحبة بيت ودكان ومشغل، تعمل الآن خادمة، أي حظ هذا!.
شعرت بمرارة القهر والفقر، سرى في دمها شيء ما؛ عطل كل مشاعرها، جعل عقلها أكثر حكمة.
لم ترفض هذا العرض؛ لأنها وجدت في هذا العجوز؛ ملجأ من شرور الناس، سترتاح من نظراتهم لبعض الوقت.
وافقت على الوظيفة، وحملت خيبتها؛ ورحلت إلى هذا البيت الكبير، عندما شاهدها العجوز تعجب، كيف لفتاة جميلة مثلها أن يكون حظها بهذا السوء؟
ابنة التاسعة عشرة عامًا، تشبه الفراشات، لم يتقدم لخطبتها أحد من شباب القرية، ما سر رفض أبناء القرية لها؟!.
لم يستوعب عقله أن القرية بأكملها؛ تعاقبها على خطأ وذنب لم يكن لها يد فيه، بل دفعتها إليه الظروف، فهي بلا أصل وبلا أهل.
أخبرها أن اسمه (باسل) وأنه مريض، لقد أعجب بها وأحبها، لم يرقه جمالها فقط؛ بل لأنها أيضًا كانت مطيعة وهادئة، لا تتكلم؛ وتعمل كل شيء بصمت، نظرات عينيها حزينة، إحساسها بالحياة مثقل بالهموم، تعيش دائمًا في شرود كأنها تبحث عن شيء ما.

حاول العجوز أن يقرأ نظراتها؛ لكنه أخطأ في القراءة، ظن أن حزنها سببه؛ أنها بلا وليف يؤنسها في وحدتها، خصوصًا أن بنات القرية يتزوجن في سن صغيرة.
لا يعلم أنها بدأت تفكر في أمها الحقيقية، لوث الكره والحقد قلبها الصغير.
كانت تشبه الوردة؛ لكنها ذابلة بلا عطر وبلا روح، حاول العجوز مرات كثيرة أن يخرجها من هذه الحالة؛ لكنه لم يفلح، ربما كان همها أكبر من سعادتها.
ومر عام عليها في بيت هذا العجوز؛ مر عليه هو؛ كأسعد لحظات حياته، لقد ازداد شبابًا، كأنه يستمد شبابه منها، تحول مرة واحدة إلى طاقة من الأمل.
قرر أن يصطحبها معه؛ في رحلة إلى المدينة، فهي لم تخرج من قريتها طول عمرها، جهز نفسه واشترى لها ملابس جميلة، ثم أخبرها أنه يود الرجوع إلى بلده، ويود أن يأخذها معه.
لم تعترض على السفر، فهي تريده بشدة، تريد أن تذهب للمسجد الذي كان يعمل فيه والدها؛ لتبحث عن أثر أي شيء يوصلها بتلك المجرمة؛ التي أنجبتها وتركتها في الهاوية. تتساقط الدموع على خديها، فتعجز أمواله كلها أمام دموعها؛ لقد سرق الحزن منها بسمتها، ود لو يتنازل عن أملاكه كلها؛ ليرد لها بسمتها، يود لو يشتري السعادة بأمواله كلها، إرضاءً لتلك الروح المعذبة، لكن العجوز لم يسألها يومًا ما بها؟.
لم يحاول معرفة لماذا تبكي ليلًا..
فهو يسمع صوت نحيبها كل ليلة، كأنه يعلم أن هذه الدموع سر مدفون مع روحها.

وجاءت لحظة خروجها من القرية، شعرت لأول مرة أنها تتنفس، وأن الحياة بدأت تدور بعد أن توقفت، ما هذا الإحساس؟ كأنها كانت في قمقم، ليتها خرجت من قبل، تريد أن تبسط يديها وتحلق مع الطيور عاليًا.
لاحظ العجوز أن ملامحها قد تغيرت، تلاشت ملامح الحزن، كأن على وجهها لوحة فنية عميقة، فهي تشرق كالشمس رغم الألم، سُر العجوز بهذا الإحساس، كم يود لو يلتقط لها عدة صور! لكن عينيه تلتقطها؛ ويحتفظ بها قلبه.
طوال الوقت وهي تنظر عبر زجاج النافذة نحو البيوت والمساكن والطرقات، ينعكس لون عينيها على الحقول فتتزين بالخضرة والجمال، تحمر الورود على خديها؛ إذا سمعت كلمة عذبة من أحدهم؛ عبر زجاج النافذة، تنظر لكل امرأة تشاهدها عيناها في الشوارع، كأنها تبحث عن وجه معين، أو شخص ما.
وصلت مع العجوز لبيت واسع وضخم، يشبه القصر، لكن قبل أن يدخلا القصر، حدث شيء غريب، لأول مرة يلمس العجوز يدها، لأول مرة تشعر بسخونة يديه، نظرت إلى عينيه لأول مرة متعجبة.
قبل أن تتكلم، قال لها:

- أنتِ ابنتي، لقد عثرت عليكِ أخيرًا، وطيلة هذه المدة؛ كنت أبحث في البلاد عنكِ، هذا ما سنقوله للجميع. فهنا يعرف الجميع؛ أنني أبحث عن ابنتي، وستكونين أنتِ ابنتي؛ التي فقدتها منذ مدة بعد وفاة والدتها، ولا أعلم أين هي الآن؟.

لقد تم اقتحام قصري، وخطف صغيرتي أمام عيني.

هزت رأسها بالموافقة، فقد سلبت حرارة كلماته روحها، ودت لو كانت فعلًا هي تلك الطفلة، لكن هيهات!!.
فهي مجرد نزوة لامرأة ساقطة، في لحظة نشوة.
أمسك العجوز يدها وقال:
- لا تخبري أحدًا من الخدم أو الأقرباء بحقيقتك،
ودخلا معًا القصر، وعلى وجهيهما ابتسامة صنعها القهر ومرارة الضياع، القصر فخم جدًا، فيه عدد كبير من الخدم.
تردد في ذهنها سؤال لماذا ترك العجوز كل هذا وذهب إلى بيته في القرية؟ وأي عاقل يترك كل هذا خلفه ويرحل!.
لم تعلم أن الجنة في الاحتواء، وأن السلام الداخلي هو أساس الحياة، فكيف لقلب يعيش بلا أحبابه!، كيف لروح أن تلهو وهي تشعر بالوحدة والفراغ!.
هنا رأت على الحائط، صورة جميلة لفتاة، ولمعت عيناها بالعديد من الأسئلة.
قالت في نفسها:
- من هذه الفتاة؟ ولماذا ترتدي عقدًا يشبه عقد أمي؟.
كانت الفتاة التي في الصورة؛ ترتدي عقدًا يلمع في رقبتها، يشبه ذلك العقد؛ الذي كانت ترتديه أم تميمة؛ كأنهما واحد. تمنت أن تكون بين هذه الفتاة وأمها علاقة، أو تكون هي تلك الفتاة؛ التي يبحث عنها العجوز.
نهضت مسرعةً نحو حقيبتها، تبحث عن ذلك العقد بلهفة؛ ربما يكون هو السبب في عودتها لأمها الحقيقية. لكنه اختفى، لم تجده في أي مكان، كأنه لم يكن.

شعرت بالحزن الشديد، كان قلبها ينبض بشدة، وفي أثناء ذلك سمعت أذنها من خلفها صوتًا عذبًا، ينشد بعض الأغاني الرقيقة، شيء ما هنالك يجذبها نحو الشرفة، بل يسحبها من عالمها المظلم هذا.

اتجهت نحو ذلك الصوت، فوجدت شابًا يشبه الأمراء، ثيابه أنيقة وشعره حريري، وجدته يقف عند القصر المجاور لبيت العجوز، وقفت تتأمل ملامحه الدقيقة الناعمة؛ يطربها صوته الملائكي العذب، هناك شيء؛ يخبرها أنه الفارس المنتظر، وأنه سيكون سر سعادتها.

كان صوته سحرًا يسيطر عليها، يسحبها إلى عالم الخيال، لم تنتبه عندما دخل العجوز غرفتها؛ لكنها ارتجفت عندما سمعت صوته؛ يقول لها:

- ماذا تفعلين هناك عزيزتي؟.

لم تجبه بكلمة واحدة، بل صمتت؛ ونبضات قلبها ترتفع؛ وبدأت تعزف لحن الحب.

عاشت مع الهمسات، ومع صدى هذا الصوت لحظات؛ لكنها مرت عليها كسنوات، استمرت على هذه الحالة عدة أسابيع.

فكل صباح تستيقظ على صوت هذا الأمير الأنيق وهو يغني، وتنتظره بشغف وهيام، وهي واقفة في شرفتها؛ التي تطل على قصره، ومن خلال النافذة؛ تشاهده وتسمعه.

لقد وقعت تميمة في بئر الحب، وغرقت في لياليه الجميلة، ونسيت كل ماضيها الأسود، بدأت تتذوق طعم السعادة، وعلى ملامح وجهها الجميل؛ تشرق شمس الحب، كانت عيناها تلمع من وهج العشق، وشدة الشوق.

انتبه العجوز؛ لذلك البريق في عينيها، فقد أصبحت أكثر جمالًا ورقة، لم تعد الدموع؛ تتساقط على خدها، لم تعد تشرد في عالمها الخاص.

فقال في نفسه:

- هناك سر ما خلف تلك اللمعة؟!.

لاحقتها عيونه في كل مكان، كانت الغيرة تأكل قلبه، ربما هو يحبها في صمت، لكنه يجيب على نفسه، ويقول:

- هي لا تخرج من القصر إلا معي، ولم تتعرف على أحد غيري، فهي في نظر الجميع ابنتي المدللة.

يهز العجوز رأسه، ويسرح في هذا الدلال، وهو يقول:

- لكن دلالها من نوع فريد، وينظر لها ويسبح في ملكوت جمالها.

لكنها تشبه العجوز في أخلاقه، كلمة نعم تلازم شفتيها، لا تعترض على أي شيء؛ مثل الفتيات المدللات، وبرغم جمالها بسيطة وهادئة

لقد جذبت قلوب كل من حولها، الجميع يتمناها لنفسه، تتمنى قلوبهم تلك اللؤلؤة الفريدة من نوعها.

حتى العجوز يرفض قلبه أن يتنازل عنها، وعقله يرفض البعد عنها، فتميمة فتاة نادرة الوجود.

لكنه يعاود السؤال مرة أخرى:

- ما سر تلك اللمعة؟!

في صباح أحد الأيام، بينما كانت تقف في شرفتها كعادتها، قررت أن تقترب من أميرها، قررت أن تبوح بحبها، لقد نسيت الماضي

أمام سطوة الحب، تحاول أن تجذب انتباهه لها، وتود لو يراها مرة واحدة عن قرب. يُجادلها عقلها:

- عليكِ أن تخبريه بحبك له؛ فيصمت قلبها ولسانها عن متابعة الحوار.

لكن عليها أن تبدأ في طرق باب قلبه، ماذا ستقول له؟.

وقفت تنظر في المرآة، وعلى وجهها تشرق الفرحة، لأول مرة تهتم تميمة بشكلها وبثيابها، لأول مرة تواجه نفسها في المرآة، وتقرر أن تهبط من غرفتها لحديقة القصر، تقرر أن تقترب قليلًا منه.

فخرجت هائمة على وجهها، تعانق الورود في الحديقة، ثم تسير بين الأشجار والزهور، فتضحك العصافير لها، كانت تقترب من ساحة القصر المجاور لقصر العجوز، كقطرة ندى سقطت في هدوء الليل بلا صوت، بينها وبين أميرها خطوات، عليها أن تتعرف عليه عن قرب، تحمر خدودها و تتخدر قدماها كلما اقتربت منه، تحاول التمسك بفروع الأشجار كي لا تسقط، وقبل أن تكمل طريقها إليه؛ نظر لها هذا الوسيم ثم ابتسم؛ لقد شاهدها وابتسم لها، لكنها تجمدت في مكانها، كأنها لوح من الخشب.

- نهض الشاب مسرعًا، واقترب منها، وقال لها:

- أنا (نديم) جاركم وهذا قصر جدي، أنا عدت من باريس منذ عام، ولم أشاهد أحدًا من قبل هنا.

ثم صمت وانتظر أن ترد عليه، لكنها أطالت الصمت، وقبل أن تفتح فمها، جاءه الرد من خلفها.

أجابه العجوز:

- كيف حالك جارنا العزيز؟ وكيف حال أبيك وجدك؟

رد نديم عليه:

- أهلًا بك يا عم باسل ، منذ مدة لم أرك هنا، وعندما سألت جدي عنك، أخبرني أنك خارج البلاد.

رد العجوز:

- نعم يا بني قضيت وقتًا طويلًا أنا وابنتي، (ووضع يده على كتف تميمة ، التي ارتعدت فرائصها من الخوف، ثم قبض على يدها بين يديه، وسحبها نحوه، وهو يردد) هيا عزيزتي، سلام يا نديم ، أراك لاحقًا يا عزيزي الصغير.

رد نديم:

- مع السلامة يا عمي.

لم يعطها العجوز فرصة؛ لتخبر أميرها نديمًا عن اسمها، أو تبدي له إعجابها بهذا الاسم الجميل، ورحلت إلى داخل القصر مع العجوز.

لكن هناك دمعة فرت من عينها؛ واتجهت نحو نديم، الذي انحنى نحو الورود؛ ليقطفها كعادته، غير مبالٍ بتلك الأميرة الجميلة.

عندما سأل والدته عنها: أخبرته أنها ابنة عمه باسل، وأنها جميلة جدًا ومطيعة، وأخبرته أن جده يريد أن يخطبها له من شدة أعجابه بها.

هنا ضحك في وجه أمه، وقال:

- خيرًا يا أمي إن شاء الله.

بينما كانت تسير مع العجوز وتدخل قصره، كانت تبكي بصوت محبوس من الخوف، كانت ترتجف، لقد سيطر الخوف عليها، وتلاشت من أمامها أحلام المستقبل.

فعندما وضع يده علي كتفها، واحتضنها أمام نديم، قالت في نفسها:

- هل أدرك ما بيننا؟ هل لاحظ حبي له؟.

كانت تهتز كعصفور صغير بلله المطر.

لكن العجوز عندما سحبها من يدها، وهو يردد:

- هيا عزيزتي، الجميع في انتظارك،

كان رقيقًا وطيبًا، لم يكن قاسيًا.

لقد نظرت لأميرها نظرة وداع قاتلة، لكنه منشغلًا بقطف الزهور، لم يظهر على ملامحه حبه لها، برغم أن قلبه نبض لها؛ إلا أنه كان مترددًا في قراره.

لقد تركت قلبها معه، وعادت إلى القصر وسجنها.

عندما جلست على المائدة أمام العجوز، الذي لم يهتم بمشاعرها، ولم يقل كلمة واحدة، اكتفى فقط بقوله: عزيزتي لا تتحدثي مرة أخرى مع الجيران، حتى لا ينكشف أمرنا، ويظن الجميع أننا بلا أخلاق.

هذه الكلمة؛ كانت أمرًا مباشرا؛ بعدم الاقتراب من نديم مرة أخرى، لكن الكلمات نزلت مثل الصاعقة على رأسها،

لقد مزقت الحروف نياط قلبها، وشتّتتِ النوم من عينيها، حولت حياتها لجحيم مرة ثانية.

وأخذت تفكر: كيف تخبر نديمًا بحقيقة حبها له؟ وهي ليست ابنة العجوز، ولا قريبته. فهي مجرد خادمة عنده، ترعى مصالحه، وتعيش في بيته بصورة كاذبة، حتى إنها لا تعرف من تكون؟.

تحولت حياتها؛ لبكاء مستمر، وعصبية وغضب من كل شيء، فلهيب الحب مشتعل في قلبها، وعذاب الضمير؛ يستولي على عقلها، والقهر والخوف والظلم يحيط بها.

فهي تعلم أنها صالحة ومطيعة، فما ذنبها إن كانت ابنة لقيطة؟ ابنة ضحت بها أمها، أو كانت غلطة لأمها، أو هي ضحية للص بلا ضمير.

ذبلت بعد مرور اسبوع، بدون رؤية نديم، لقد رفضت الحياة بدونه، لم تعد تخرج من غرفتها، لم تعد تستمع؛ لصوته العذب وهو يغني، لم تشاهده منذ أسبوع، عادت لصمتها القديم، الدموع في عينيها، ووجهها شاحب مصفر.

على عكس نديم؛ الذي كان يبث شوقه لها؛ من خلال غنائه وصوته العذب.

لاحظ العجوز أنها ليست بخير، وأنها قد تموت؛ لو استمرت هكذا، كل يوم تتأخر حالتها عن اليوم السابق، أحضر طبيبًا وراء الآخر حتى عجز الأطباء عن العلاج.

فكيف يعالج الطبيب من عشق بلا أمل؟ من فقد الأمل في حياته؟ من دفع روحه ثمنًا لهذا الحب؟ من قرر أن يعيش من أجل الحب؟. أجبر العجوز على الكلام معها في بعض تفاصيل حياتها، وجلس بجوارها، وقال:

- عزيزتي، لأول مرة أتدخل في حياتك الخاصة، لماذا وقفت بنا في منتصف الطريق؟ ذلك المنتصف المميت، هل تريدين الرحيل؟ أتريدين أن أتركك أو تتركيني هنا، لماذا عزيزتي؟. كنتِ لي نعمة، وهبني الله إياكِ، وكنتِ البنت التي لم أنجبها، أعدتِ لي الأمل في الحياة،

وبفضلك أعيش في بيتي. أخبريني عزيزتي، ما سبب هذا الحزن المفاجئ؟ هل أزعجتك في شيء؟ ثم بدأ يتوسل لها ويركع على قدميه أمامها. وانهمرت الدموع من عينيه.

نظرت في عينيه لأول مرة، لقد أشفقت على قلبه المريض، رفضت أن تكسر قلب رجل وقف معها، ولم يتركها لأنياب الحياة الحادة تنهش جسدها النحيل. فقالت:

- عشت معك عامين، كنت الأب والأخ والسند لي، لم تحاول معرفة أصلي أو أهلي؛ كما فعل أهل القرية، ولكنني سأخبرك اليوم بحقيقة أمري. أنا لست ابنة الشيخ حسن صاحب الدكان، الذي تعرفه، كما أن زوجته ليست أمي، أنا مجرد طفلة لقيطة، وجدها هذا الشيخ الطيب أمام المسجد، الذي كان يعمل فيه؛ حملني الشيخ إلى زوجته؛ التي رحبت بي؛ لأنها عاقر لا تنجب.

انهارت الدموع من عينيها، ماذا فعلت؛ لتحصل على كل هذا العذاب؟ ما ذنبها؟ ربما كان قدرها أن تصبح لقيطة.

لأول مرة يمرر العجوز يده على وجهها، لقد مسح دموعها، وهو يردد

- دعيني عزيزتي الجميلة، أقطف اللؤلؤ من على خدك... ويبتسم.

ما هذا الحنان الذي بداخله! كأنه يعشقها؛ ولا يريد أن يعترف بذلك، لكنها أكملت قائلة:

- لقد وهب الله لي رجلًا وامرأة، أعطونني الحب والعطف والحنان، لم يخبراني بأنني لقيطة. لكن أراد الله أن أعلم

الحقيقة، فوجدت ورقة بخط أبي يخبرني فيها، بأنني لست ابنته، وأنه وجدني في هذا العنوان. (أخرجت من حقيبتها ورقة صغيرة، وأعطتها للعجوز؛ الذي لم تتغير معالم وجهه؛ كأنه يعرف بحقيقة الأمر.)

أخذ الورقة من يدها، ووعدها أنه سيبحث عن والدتها، بشرط أن تعود للحياة وتزهر، لقد شعرت بارتياح شديد؛ عندما خرج هذا السر الدفين، من بين ضلوعها.

لكنها لاحظت شيئًا غريبًا؟ لاحظت أن عيون باسل زرقاء، وأنه يشبه كثيرًا ملامحها، لأول مرة تقول له:

- شكرًا لك يا أبي،

لأول مرة تود أن تقولٍ له كلمات رقيقة، لأول مرة تشعر بأنها تحبه، حبًا طاهرًا عفيفًا، ربما هو كان مجرد شعور برد الجميل له، لكنها خجلت أن تقول له أحبك يا أبي، مع أنها تشعر بحبه الشديد لها .....

ولكنها لم تقل له كلمة أبي؛ إلا أمام الناس، لم تعطه أي اهتمام، لم يكن مهمًا يومًا ما في حياتها، مع أنه كل شيء في حياتها، لولاه لكان مصيرها الشارع، لولاه لعاشت في تشرد وضياع.

نظرت له بحنان ثم قالت:

- شكرًا لك يا أبي، أنا مدينة لك بحياتي كلها.

ابتسم العجوز لها، وأخبرها: أنه أعد لها مفاجأة جميلة، ستجعلها سعيدة جدًا لمدة عام، وضحك في وجهها، ثم نهض من جوارها، وقال:

- عليكِ أن تجهزي نفسك، ستكونين الليلة أميرة على عرش القلوب.

خرج العجوز من غرفتها؛ وكله ألم ووجع، كان يسير في قصره كالحي الميت؛ وعندما دخل غرفته أغلق الباب، وانفجر بالبكاء والصراخ، أخرج ما بداخله من كبت وندم، كان يعلم أنها ليست ابنة الشيخ حسن.

لقد كان صديقًا للشيخ، وقد أخبره بسرها قبل أن يموت، وتعهد أمامه برعايتها وحمايتها، لكنه لا يعلم من تكون أمها أيضًا، تلك المجرمة التي لم تشفق على روح صغيرة.

مد يده نحو صورة معلقة على الحائط نظر نحوها كثيرًا، وهمس بصوت منخفض:

- أين أنت الآن حبيبتي؟ سامحيني فقد ظلمتك كثيرًا، وقتلت طفلتي الوحيدة، لكنكِ أخذت روحي وسعادتي معك.

بينما باسل يخاطب صورة زوجته على الجدار، كانت تميمة تجهز نفسها للمفاجأة.

سمعت صوت نديم يغني، وصوته قريب جدًا، فخرجت مسرعةً؛ تنظر إليه من خلف ستائر شرفتها، وجدته تحت شرفتها يقف مبتسمًا، اهتز جسدها بقوة من شدة الفرح، بادلته الابتسامة ثم اختفت؛ لقد تذكرت قول العجوز لها:

- عزيزتي لا تتحدثي مع أحد من الجيران.

جلست فوق سريرها، وهي تبكي بشدة، تشعر بالوجع في كل قطعة من جسدها، سمعت أقدامًا تتجه نحو باب غرفتها، أقدامًا باردة ليس فيها روح.

صمتت وقلبها ينبض بالحب والشوق واللهفة، وبدأت تجهز نفسها أمام المرآة، وكان انعكاس صورتها في المرآة يشبه البدر، بل إنها أجمل منه، تلك الغمازة على خدها تحرج الورد

من جمالها، وخصلات شعرها الحريري، ترسم إطارًا لهذا الوجه الملائكي، لكنها لا ترى كل هذا الجمال، بل ترى نفسها لقيطة، تسأل نفسها دائمًا:

- هل سيختار نديم قلبها وحبها أم سيرفضه؟.

جذبها من كل هذه الأوهام صوت العجوز وهو ينادي عليها، لكن ما هي المفاجأة؟ وماذا سيحدث فيها؟ كان صوته ينادي عليها بإلحاح عجيب.

يقول بصوت حنون:

- عزيزتي تميمة، تعالي يا جميلتي، فاليوم هو عيد ميلادك، اليوم تبلغين العشرين من عمرك ،

توقفت في مكانها، عن أي عيد ميلاد يتحدث! لم تحتفل به طيلة هذه السنوات، حتى لا تعلم تاريخ ميلادها الحقيقي، عن أي ميلاد سعيد يتحدث؟.

سقطت من عينيها دمعة حارة، من شدتها احمرت وجنتاها.

- صرخ: ما هذا الجمال؟!.

فليتحدث العالم أن باسلًا؛ أنجب قمرًا.

أمسك بيدها وقادها نحو الضيوف، وعرفها على بعض أصدقائه وبعض المعارف، كان فخورًا جدًا بها، لكنها لم تبتسم إلا لوجه واحد، هو وجه نديم، الذي ظهر فجأة من بين الحضور، ليهديها علبة صغيرة، وقال بصوته العذب:

- (كل عام وأنتِ تميمة؛ معلقة فوق صدورنا).
- ما هذا الكلام! وماذا يقصد به؟ هل يعترف بحبه لها؟.

لمعت عيناها ببريق الشوق والحب، الذي يكوي قلبها، لكن لسانها مسجون بل قطعه الخوف، لقد طارت الحروف بعيدًا. -لقد

طلب العجوز من نديم أن يغني، فهو مشهور في وسط الأغنياء بصوته العذب، وأنه أمير القلوب.
لبى نديم طلب العجوز، ووقف في منتصف الحفل، وقال:

- أهدي هذه الأغنية لعمي باسل وابنته الجميلة، وأبارك له ولها في عيدهما العشرين، ولأنه استطاع أخيرًا؛ أن يجد جوهرته المكنونة. كم من قلوب ماتت! عندما سلبوا منها أطفالها، لكن عمي كان قويًا، وجمع طفلته بعد أن خطفها اللصوص.

وبدأ يغني أغنية رقيقة، اندمجت تميمة معه، صنعت من صوته وكلمات وحروف الأغنية عالمًا، طارت فيه سعيدة.
لكن باسلًا لم يسمع من الأغنية كلمة واحدة، فهو يشعر بأنه كاذب؛ لكنه يكذب على نفسه فقط، ويعلم أن طفلته ماتت، وأن جثتها دفنت في حديقة القصر، وأنه يرى شبحها في كل مكان.
عاد بذاكرته للخلف، لسنين مضت وانتهت، لكنها باقية تشهد على مرارة وقسوة القلوب؛ عندما كان في العشرين من عمره، تزوج ابنة عمه صاحبة الأموال والجاه والسلطان، تزوجها هروبًا من الفقر، وليس حبًا لها، كانت مريضة ولكنها تحبه، لم يحبها مع كونها جميلة، كان لسانها سليطًا، تعايره بفقره وحاجته، و قد أحبته من قلبها، أحبته لدرجة الفناء والغيرة، وعندما وجدت قلبه مشغولًا بغيرها كرهته.
كانت تنتقم منه بسبب ألم قلبها، تذكر عندما دخل عليها فوجدها تضحك، سألها عن السبب، قالت:

- أنا حامل، (سأنجب لك ولدًا جميلًا مثلي، سيرث من بعدي كل هذه الأموال، لن أترك لك قرشًا واحدًا، لن أجعلك تتمتع بأموالي).

لم يفرح باسل بهذا الخبر، مثل أي أب ينتظر هذه اللحظة، فهي مريضة وينتظر موتها، حتى يتزوج من حبيبته، ومرت الشهور والأيام، وأنجبت زوجته طفلة جميلة، لكنها مريضة بمرض والدتها، عندما علمت الزوجة بعد عدة شهور من ولادتها؛ حزنت على طفلتها، حزنت حتى الموت.

فقد عرفت من الطبيب أن أطفالها؛ سيرثون هذا المرض منها، وطلب منها ألا تنجب مرة أخرى أفضل لها، شعرت بالإحباط ومرضت ثم ماتت.

تركت باسلًا والقصر وطفلته المريضة، أحب طفلته وعشق لون عينيها الأزرق، لم يهتم بزواجه بتلك الحبيبة؛ بقدر اهتمامه بنور طفلته، نعم كان اسمها (نور) وهي تشبه والدتها في كل شيء.

عاشت الطفلة بين أحضان الأب، حتى جاء فصل الشتاء ببرودته الشديدة، فاشتد المرض عليها، وساءت حالتها، وفي ليلة شديدة السواد، شعر الأب أن طفلته ليست بخير، وأن الموت يحلق فوقها، والفراق قد حان وقته، وأنها لابد أن تذهب للطبيب، فهي أصبحت في عذاب دائم. لكن ماذا سيحدث بعد موتها؟ فزوجته تركت كل الأموال لها، وأوصت بعد وفاة الطفلة، أن تعود تركتها لعائلة أبيها، لقد حرمته من كل شيء.

فقرر أن يصنع قصة، تجعله يفوز بالأموال، لم يعلم أن حيلته ستكون السبب في تدمير مستقبله، وأن المال سيكون نقمة وليس نعمة له.

حمل صغيرته إلى خارج القصر؛ وهي نائمة، أدخلها في غرفة مهجورة خلف القصر، غرفة يجهل مكانها غرفة يجهل مكانها الجميع.
كان عمر (نور) ثلاث سنوات، اطمأن عليها أنها بخير، وأنها نائمة ودافئة، ثم تركها وحيدة، وخرج قبل أن يراه أحد.
تركها نائمة في سبات عميق.
وقف في منتصف القصر، وأخذ يصرخ بصوت عالٍ، وأطلق في الهواء بعض الرصاصات.
تجمع الأهل والناس والجيران، الجميع في حيرة؛ ماذا يحدث؟
الكل يصرخ:
- النجدة،
وهو في منتصف القصر يصرخ:
- اللصوص خطفوا طفلتي، (طفلتي معهم ويبكي.)
خرج الجميع يبحث عن طفلته في منتصف الليل، حتى هو كان يبحث مثل المجنون معهم، لكنهم لم يعثروا على شيء.
وفي الصباح عاد الجميع إلى بيوتهم، إلا هو؛ فقد عاد إلى الغرفة؛ ليهرب بنور إلى إحدى المستشفيات القريبة، حتى لا يعلم بوجودها أحد.
لكنه لم يجدها كما تركها، فقد وجدها قد فارقت الحياة، وجد جثتها باردة، وجد على ملامحها الخوف، تمالك نفسه؛ وانتظر حتى المساء؛ فحملها في الظلام؛ ودفنها في الحديقة، ثم عاد إلى القصر يجر معه الندم.
كان يصرخ في منتصف الليل، فيشق صراخه صوت الليل، أشفق عليه الجميع من حوله؛ لكن الندم نهش قلبه وروحه وعقله، كره

القصر، وخرج هائما على وجهه، يبكي ويطلب الصفح على فعلته، ظن أنه السبب في موتها، وأن طمعه وجشعه هو من قتلها.
بدأ يفقد عقله، أشفق عليه الجميع؛ لأنهم يعتقدون أن طفلته مخطوفة، وأنها مازالت حية تعيش، لا أحد يعلم أنها ماتت، هو فقط يعرف ذلك، وأنه يراها تلعب فوق قبرها.
ترك القصر ورحل إلى بيت زوجته في الريف، عاش وسط الحقول الخضراء؛ التي لم تستطع محو ذنبه.
ومرت الأيام عليه؛ وهو يعيش في تلك القرية، التي هرب إليها الشيخ حسن مع زوجته.
عندما أخبره الشيخ حسن بقصة تميمة، أعاد له جزءًا من روحه الضائعة، وتمنى أن يحصل عليها، ربما لأنه رأى أنها تشبه طفلته كثيرًا.
لكن الشيخ حسن كان متمسكًا بها، رفض التنازل عنها، برغم أن باسلًا عرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال، لكن حب الشيخ لها؛ كان حبًا أبويًا حقيقيًّا.
كانت عيونه تترقب خطواتها، منذ دخولها المدرسة، فهو من ساعد الشيخ في دخولها المدرسة، ثم شاهد انهيارها بعد وفاة والدها، وبعد وفاة أمها، كان لابد أن يحصل عليها في هذا الوقت.
عندما أنزل الله السيل على القرية، وانهدم بيتها، وخسرت بيتها والدكان، كان سعيدًا؛ لأنه ربح وفاز بها؛ فقد عوضته عن حب طفلته، ولشدة هدوئها ونقائها عشقها أكثر من ابنته.

لقد عاد إلى القصر بها؛ ليقتنع عقول الناس هناك، أن ابنته مازالت حية، كان يضحك على عقول الجميع بقصص كاذبة، كان يرى نفسه لصًا ومجرمًا وقاتلًا، لكن حبها غير تلك النظرة عنده، حولته لشخص شهم ونبيل.

هنا أنهى نديم أغنيته، وصفق له الجميع.

انتبه العجوز أن الماضي انتهى، وأن ابنته معه.

أما تميمة ونديم فكلاهما كان في عالم مختلف، عالم من السعادة والحبور، ربما سيضحك المستقبل لها؛ وتحصل على أميرها؛ الذي أعطاها علبة صغيرة؛ بها قلب من الذهب، قلبها؛ الذي أخذه نديم.

كانت أول هدية تحصل عليها في حياتها.

رحل الجميع كل إلى بيته، ودخلت غرفتها، وارتدت القلب الذهبي، ووقفت تنظر في المرآة وتنسج الأحلام، كان الحب يسيطر على جوارحها، ولأول مرة تنام سعيدة في فراشها.

لأول مرة تشعر بأنها إنسانة من لحم ودم، تشبه هؤلاء البشر؛ الذين يحبون ويتزوجون، وتكررت في عقلها كلمة يتزوجون، كيف تتزوج نديمًا؟ وهو لا يعلم بأنها لقيطة.

هي بلا أصل ولا ماضٍ، حاصرتها الأفكار من كل ناحية، والماضي يصرخ في وجهها، ودت لو مكثت في القرية، ولم تأتِ إلى هنا، ودت لو تزوجت بشاب من هناك، ودت لو لم تقابل نديمًا، أشياء كثيرة حضرت في ذهنها، أصعبها ماذا سيحدث لو عرف نديم بأنها كاذبة؟ وأنها ليست ابنة هذا العجوز.؟.

كيف تقنعه بأنها عاشت معه في قصره وتحت رعايته الكاملة بصورة أبوية؟ كيف تخبره بأنها لا تشبه أمها الفاجرة؟ لكن

عقلها يردد جملة واحدة ألا وهي؛ لو علم ذلك فسيتركها. جلست تميمة على كرسي في شرفتها، ونظرت للسماء الواسعة، للطيور المحلقة عاليًا، نظرت بقهر وحزن شديد، أخذت تبث أحزانها لخالقها، تشكو إليه حزنها وقلة حيلتها، فهي لم تختر حياتها، ولن تستطيع تغيير نظرات المجتمع لها، اغرورقت الدموع في عينيها؛ ثم نامت.

عبثت الأفكار بعقلها، وتشوهت الحقيقة بالخيال، لقد تحرر عقلها الباطن؛ لدرجة التملك، وبدأ ينسج في نومها كابوسًا، ولكن من أفكارها السوداء.

رأت أنها تقف أمام المرآة، وهي ترتدي فستانًا أبيض جميلًا، وتتزين رقبتها بالقلب الذهبي، قلب نديم حبيبها.

كانت تشبه الأميرات في كل شيء، وهي سعيدة جدًا.

فمن شدة جمالها؛ انكسرت المرآة أمامها، وجرحت قطعة زجاج يدها، وتحول فستانها للون الدم، أصبح أحمر اللون.

كانت تصرخ وتبكي، فجاء يهرول مسرعًا نحوها.

وهو يصرخ:

- حبيبتي ابتعدي بسرعة من هنا، هيا اهربي غاليتي.

هرولت مسرعة نحو الباب وخرجت؛ لتجد نفسها وحيدة، وتحول قصر العجوز لبيت قديم؛ وأصبحت حديقة القصر أرضًا صحراء.

كانت تقف وحيدة، أخذت تنادي عليه؛ وتبحث عنه، لكن لم تجده في أي مكان، مع أنها تسمع صدى صوته.

رأت من بعيد امرأة كبيرة وقبيحة الشكل، تشبه الساحرات، تقترب منها وتقترب.

أخبرتها: أن نديمًا يحاول قتلها، وأنها لابد أن تهرب، ظهرت علامات الدهشة؛ بوضوح على وجهها، فصرخت:

- أنتِ كاذبة، هو حبيبي وسوف نتزوج قريبًا.

ضحكت هذه المرأة؛ وتحولت فجأة؛ لثعبان عظيم، وقالت:

- يتزوج من؟ أنتِ؟. أنتِ ابنة زنا، ساقطة بلا أصل، وهو يعلم ذلك، لن يتزوجك بل سيتمتع بك؛ ثم يلقيكِ في الشارع مثل أمك.

بدأ الثعبان يهاجمها، وهي تصرخ وتصرخ؛ حتى استيقظت من نومها مفزوعة، جاحظة العينين، لا تستطيع التنفس؛ ترفض كل شيء من حولها.

- لقد التهم الكابوس كل أحلامها، سقطت على الأرض مغشيًا عليها. عندما ذهب العجوز ليراها في الصباح كعادته، لم تستجب لندائه عليها، فدخل غرفتها مفزوعًا، فوجد أن روحها قد فارقت الحياة؛ لكن جسدها مازال قلبه ينبض.

أسرع بحملها ووضعها في سيارته، انطلق متجهًا نحو المستشفى، وهو لا يعلم ماذا يحدث لها؟ كل تفكيره منصب في أن لا يفقدها، حتى لو أنفق جميع أمواله كلها.

دخلت المستشفى وهي شبه ميتة، دخلت غرفة العناية المركزة في أكبر مستشفى في المدينة، حولها خمسة من أكبر الأطباء، الكل لا يعرف ما بها؟.

يقول الأطباء:

- أنها تعاني من انهيار عصبي حاد، وأنها ترفض الحياة، ولا يستجيب جسدها للعلاج.

حاول الأطباء معها، لكن جسدها دخل في غيبوبة تامة، لم يبق منها شيء حي؛ غير نبضات صادرة من قلبها الضعيف.
ما هذا العذاب؟ ما ذنبها؟ يصرخ العجوز وهو يمسك يدها،

- لا تموتي عزيزتي، بالله عليكِ لا تموتِ.

لكن عقلها يصدر حكمه بالإعدام عليها، وتمر الساعات على باسل كأنها ألف عام، يلجأ إلى ربه وهو يبكي...
هو في المسجد يبكي بصوت عالٍ، يشتد نحيبه وصدى صوته المتقطع، فيجذب انتباه؛ شاب وسيم داخل المسجد، فيهرول إليه مسرعًا، ويحتضنه كأنه أبوه.
أخذ الرجل يئن في أحضان هذا الشاب كطفل صغير، يتمتم بكلمات لم يفهمها، أجلسه بهدوء، وقال له:

- ما بك يا عم؟ أخبرني: هل تحتاج لشيء أو للمال؟ قل لي؛ وأنا إن شاء الله أساعدك.

يبتسم بسخرية، وهو يردد:

- لا يا ولدي، أنا أحتاج لمعجزة من الله؛ كي يرد لي ابنتي، فهي بين الموت والحياة، تنازع من أجل البقاء، لقد حصلت عليها بعد مشقة وعناء مع الزمان، ابنتي في غيبوبة تامة في المستشفى، تعاني من شيء لم تكن هي المسؤولة عنه.

يسأله الشاب متعجبًا:

- كيف ذلك يا عمي؟
- ابنتي كانت ضحية لمجتمع ظالم، يجعلون الضحية هي من تدفع الثمن!، وأجهش بالبكاء مرة أخرى.

دمعت عين الشاب، وبكى قلبه لبكائه، ودعا ربه في أذان الفجر، أن يعطف على هذا المسكين، ويشفي ابنته.

- عند أذان الفجر، لم يكن في المسجد غير العجوز، وهذا الشاب الوسيم، فأقاما الصلاة وتوسلا إلى الله بالدعاء، وبعد الصلاة قام الشاب وخرج من المسجد.

ظل باسل داخل المسجد يبكي ويدعو الله، ويسأله أن يعفو عن تميمة.

- ومع ضوء الشمس، دخل الشاب عليه؛ وفي يده بعض الطعام والماء، وطلب منه أن يشاركه الطعام، رفض أن يأكل أو يشرب، لكن الشاب أقنعه بأنه لابد أن يكون قويًا ومتماسكًا، وأن هذا البلاء سيزول بعد الدعاء إن شاء الله.

مكث باسل بجوار هذا الشاب؛ الذي لا يعرف حتى اسمه، تناول القليل من الماء، ودار بينهما حوار قصير.

أخبره الشاب أن اسمه (يوسف) وأنه يعمل هنا مؤذن، وأنه يرحب بوجوده في أي وقت، وأنه تأثر لمرض ابنته.

هز رأسه في صمت، لكن يوسف يود لو يعرف قصته.

فهو لم يخبره بشيء، ربما أراد أن يكتم سر تميمة للأبد.

خرج من المسجد مسرعًا؛ نحو المستشفى؛ ليطمئن عليها، وعندما وصل إلى المستشفى؛ وجدها كما هي، الأجهزة حولها في كل مكان.

دمعت عيناه، وجلس بقربها، ثم نظر إليها بحنان، وأمسك يدها بين يديه، وبصوت مبحوح باكٍ قال: تميمة، بل يا تميمة القلب، أشهد الله أنني أحببتك، أحببتك كابنتي تمامًا، وأنني لم أنظر لك يومًا نظرة سوء أو مكر، كنتِ عزيزتي، نِعم الابنة.

ضاعت الحروف منه، فشهق بصوته الشجي، شهقة عاشق طعنه الحنين، فصرخ قائلًا:

- اشتقت لرؤية عينيك يا صغيرتي، اشتقت لكلمة بابا، لا تلقي اللوم على نفسك، أنتِ طاهرة وعفيفة، لست مثالًا سيئا لأحد. ارتجفت يداه من الألم، واهتز قلبه صارخًا: يا تميمة القلب، أشهد الله؛ أنني من اليوم سأبحث لك عنها، وسأجدها إن شاء الله، وستدفع الثمن غاليًا حبيبتي.

وبنظرة تحدٍ قال:

- يا تميمة القلب أنا لن أعود لكِ إلا معها، وإن لم أجدها فلن أعود، أرجوكِ انتظريني فقط بضعة أيام، ثم قبل يديها ورحل.

لم يستطع تقديم شيء لها غير الوجع، لكن عقلها قرر شيئًا آخر، قرر الهروب من هذا المستنقع، قرر البقاء في جزء معين. أما قلبها فيحاول البقاء، فهو ينبض من أجل نديم، لم يعلم أنه طلب يدها في حفلة عيد ميلادها، وأنه تعلق قلبه بها.

لقد أخبره العجوز بكل شيء، وأنه يعاني أيضًا من هذا الموقف، بل يضطرب قلبه اضطرابًا.

القلوب في ألم شديد، القلوب تئن وتبكي، الجميع يبحث عن امرأة، امرأة في لحظات حب سقطت في بئر الرذيلة، وقررت أن تترك طفلتها لمصير مجهول، مصير أوصلها إلى هنا، هنا في الظلام وسط القلوب المظلومة.

لقد عانت من الحياة كثيرًا، وقررت أن تستسلم.

رحل العجوز من المستشفى؛ بعد أن دفع فاتورة العلاج لمدة شهر، وتركها تحت رعاية نديم، ورعاية طبيبها المعالج، وعاد

إلى بيته يبحث عن تلك الورقة التي أعطتها له؛ عندما وجدها ظهرت على ملامحه الدهشة. فهذا المسجد كان يصلي فيه اليوم مع يوسف.

حمل معه هاتفه وبعض الأموال، وخرج من قصره متجهًا نحو سيارته، قاد سيارته وهو لا يعلم إلى أي الطرق يتجه، لكنه كان متجهًا نحو المسجد.

وعندما وصل هرول مسرعًا نحو يوسف، الذي استقبله بابتسامة، وهلل مرحبًا به.

أخبره أنه يحتاج إلى مساعدته، لكن دون أن يعلم أحد بالأمر، جلس يوسف يستمع لكلامه؛ وهو يسهب في التفاصيل، أشفق قلب يوسف عليها، وقرر أن يمد لها يد المساعدة، وأن لا يتركها في محنتها.

خرج معه إلى رجل يقال له (الجد توفيق) وهو أكبر رجل موجود في هذا الحي، (فالجد توفيق) يحفظ الحي وأهله، وعندما سأله عن الشيخ حسن وزوجته عرفهما، وأثنى على الشيخ؛ لحسن خلقه وكرمه وطيبة قلبه، أخبرهم أنه لم ينجب أبناء وليس له أحد، فقد كان يتيمًا، وكانت زوجته عاقرًا لا تنجب.

عندما سأله باسل:

- هل سبق وسأل أحدهم عن طفلة مفقودة، أو بعد رحيل الشيخ حسن من هنا؟.
- رد الجد توفيق بالنفي، وقال: لم يعد الناس كالسابق، فالجميع في حاله الآن،

لم يفيده الجد توفيق، ولم يجد عنده الجواب.

اسودت الدنيا في عينه، ولكن قبل أن تسود، قال يوسف له:
- هل سبق وبحثت في مراكز الشرطة؟.
لم يستطع الرد، كيف لم يفكر في هذا الأمر؟
أخذ يوسف معه في سيارته، واتجها إلى مركز الشرطة التابع له هذا الحي، وطلب البحث عن طفلة فقدت في هذا التاريخ، كان التاريخ الذي تركه الشيخ حسن لتميمة؛ هو المفتاح الذي حل اللغز، لم يكن بالسهولة واليسر أن يقوم الموظف بالبحث في سجلات عمرها القانوني ما يزيد على عشرين عامًا.
- فاستغل مكانته ونفوذه، وبدأ البحث في الأوراق القديمة، عن تلقي بلاغ بفقدان طفلة مولودة بهذا التاريخ، بحثوا هنا وهناك لمدة أسبوع.
قضى هذا الأسبوع في بيته، لم يذهب لزيارتها، كان يطمئن عليها من نديم، يتصل كل يوم بطبيبها، فيخبره أنها كما هي، حالتها مستقرة؛ لكن لاحظ الطبيب شيئًا ما يحدث لها، وقت وجود نديم عندها.
كانت تتساقط بعض الدموع من عينيها، كأنها تشعر بمن حولها، أو أنها تشعر بوجوده.
نقل الطبيب هذا الشعور للعجوز، فرد عليه: أنه خطيبها، وأنه يحبها، وأنها أيضًا تحبه.
- نعم، لقد اكتشف باسل؛ أنه سبب اللامعة؛ التي كانت في عيونها؛ وأن نديم هوحبها الأول.
لكن أين هو من كل هذا الوجع؛ الذي سقطت فيه؟.
يقضي نهاره كله في المستشفى، يقنع نفسه أنها قد ماتت، وأن روحها ضلت طريق قلبه، قرر أن يذهب لها في الصباح؛ يقف

بجوار سريرها، ويغني لها أغنية عيد ميلادها، ربما تعود تلك الروح المعذبة من عالمها المجهول، عالم سجنت أحلامها وحبها فيه.
ومع شروق أول ضوء للشمس، ارتدى ثيابه، واتجه نحو المستشفى، دخل غرفتها؛ فوجدها كالأميرة النائمة، ربما تستيقظ بقبلة منه.
وقف بجوار سريرها، وبدأ يغني بصوته العذب الرقيق، دخل الطبيب عليه؛ ليخبره أنها لا تشعر به، وأن ما يفعله خطأ، وأنها في غيبوبة؛ وعليه أن يفهم ذلك.
لكن الدموع المتساقطة من عينيها، صفعت قلب الطبيب، الذي صمت أمام قصة حب مقتولة.. قصة حب توضح الفرق بين الموت والحياة.
أنهى أغنيته بالبكاء، لقد علم أن روحها تركت هذا الجسد، ولن تعود يومًا ما، وأن هذا الجسد أوشك على الرحيل أيضًا. فأمسك يدها بحنان، وأخبرها بأنه يفتقدها، وأنه لا يستطيع البقاء في قصره بدون رؤيتها، أخبرها أنه أحبها من أول نظرة، لكن قصة حبهما فشلت في استرداد روحها. ثم قال:
- يا تميمة القلب، أنا راحل، سأترك هذه المدينة، كما تركتِها أنتِ، سأترك هذه المدينة، التي ستكون قبرًا لكِ، لن أنتظر إعلان وفاتك، لن أتحمل هذه اللحظة.
وبدأ يجهش بالبكاء، وضع الطبيب يده على كتفه، وقال له:
- ادعُ الله أن يشفيها ويعفو عنها، هي لم تتركك؛ لكنه المرض.

بدأ صوت جهاز القلب يعلو ويعلو، يعلن أنها تستعد للرحيل. الطبيب في حيرة، كانت الأمور جيدة قبل كلام نديم معها.

أسرع الطبيب لإسعافها، بينما هرب نديم إلى قصره باكيًا، تميمة تصرخ بنبضات قلبها، لا ترحل يا حب عمري.

الطبيب عاجز أمام سرعة النبضات، فالقلب يكاد أن ينفجر، والقلب الآخر يفر هاربًا نحو المجهول، لم ينتظر موتها، بل أسرع بحمل ملابسه وقلبه نحو المطار.

ركب طائرة كانت متجهة إلى فرنسا، تلك البلاد الأوروبية التي نشأ فيها، قرر الاستسلام، فهو لا يعرف الحب وقوته، قرر أن يختار الحزن دون البحث عن السعادة، تخيل أن روحها تحلق معه في الطائرة، كان اليأس مسيطرًا عليه، جعله يقتلها بكل دماء باردة.

فمن خلف الأجهزة يصرخ قلبها:

- وداعًا يا نديم، وداعًا كما ودعت كل أحلامي معك.

تفاجأ العجوز باتصال من الطبيب، يخبره أن ابنته تنازع الموت، وأنه عليه أن يحضر فورًا إلى المستشفى.

- خرج من قصره مسرعًا نحو نديم، فلم يجده في قصر جده كعادته، بل وجد الخيانة مكانه، لقد فر من مسؤوليته، قالت والدته:

- أنه عاد إلى فرنسا، كما أخبرته أنه يعتذر له؛ لأنه لن يفي بعهده.

باسل يترنح كالسكران من الحزن، ما هذا الإحساس المؤلم؟ الذي يمزق القلب، توقع أن هذه هي النهاية، نهاية كل شيء جميل في حياته، جر حظه السيء معه إلى المستشفى.

في هذه اللحظة، كان قلبها قد استقرت حالته مرة أخرى، بعد عناء شديد؛ لقد خذلها الجميع.

عندما وصل إلى غرفتها، وجد مجموعة من الأطباء حولها، كل طبيب يفحص جزءًا من جسدها.

أمسك الطبيب المعالج جهاز التنفس ونزعه عنها كما نزع عنها جميع الأجهزة، وتركوها ورحلوا.

سقط باسل على الأرض باكيًا، لقد ماتت تميمة، تلك اللؤلؤة التي تنير حياته، انتهت تلك المأساة، مات معها كل حلم له في الحياة.

ومن شدة انفعاله، جذب جسدها النحيل نحو صدره، وأخذ يبكي ويئن، كطفل فقد أمه في انفجار، أو كرجل ماتت أمه أمام عينيه.

شعور مختلط يقتل قلبه بخنجر الفراق، ربما يبكي لموت زوجته؛ قبل أن يخبرها أن تسامحه، أو يبكي لموت ابنته نور؛ وهي وحيدة في غرفة مظلمة، لكنه الآن يبكي لموت تميمة؛ التي جسدت عذابه أمام عينيه.

جذب الطبيب جسدها من حضنه، وبدهشة قال له:

- ماذا تفعل؟ هي لم تمت، هي على قيد الحياة.

صرخ في وجه الطبيب:

- إذن لماذا نزعت كل الأجهزة عنها؟

رد الطبيب بابتسامة:

- أستاذ باسل، عقلها يرفض مواجهة الحياة، هي ليست في غيبوبة؛ كما توقعنا جميعًا، بل عقلها هو السبب.
- سأل العجوز: كيف ذلك؟.
- أجابه الطبيب: إن عقلها يجبر جسدها على النوم، لتفادي ألم المواجهة، أو أنها تهرب من مشكلة صعبة في

حياتها، لذلك نزعنا الأجهزة عنها، كي يستجيب العقل؛ لمتطلبات الجسد من الماء والأكل، ويشعر بالتهديد من الموت.

هنا خر باسل ساجدًا لله - عز وجل- فتميمة مازالت على قيد الحياة.

جلس الطبيب بجواره، وقال:

- أخبرني لماذا تهرب ابنتك من الحياة؟ رغم جمالها وأموالك، لماذا تكره الحياة؟.
- قال له: هي تهرب مني ومنك ومن حبيبها، ومن المجتمع كله. إنها لا تستطيع مواجهة الحياة، وأموالي لا تجلب لها ذرة من السعادة.

ظهرت على ملامح الطبيب الغرابة والدهشة، مدمجة بالحب والحنان لها.

فتلك الأميرة النائمة على السرير الأبيض، تواجه مجتمعًا ظالمًا، ألبسها ثوب الخزي والعار منذ صغرها، في جريمة لم يكن لها ذنب فيها؛ بل كانت هي الضحية.

خرج باسل من المستشفى، يجر أحزانه معه؛ متجهًا إلى يوسف، ذلك الإمام الصغير الذي يترقب ويبحث عن أمها الحقيقية.

لكن عند دخول باسل إلى المسجد، لاحظ وجود امرأة عجوز، تبحث بعينيها عن شيء ما....

امرأة تبحث في الماضي، تبحث عن شيء قديم، ضاع منها.

لم يهتم بكلام المرأة، ومنظرها الحزين، ودخل المسجد يبحث عن يوسف، وجده يجلس في زاوية من المسجد؛ يبكي ويصلي؛ فجلس بجواره، ووضع يده على كتفه، وقال له:

- لماذا تبكي يا إمام؟.
- نظر له، ثم قال:
- غلبتني نفسي، وفاضت عيناي، لقد ماتت أمي منذ عام، وأصبحت في البيت وحيدًا، أعانق الظلام، فليس لي أحد بعد الله غيرها، أعاني من وحدتي.

وبدأ يفتح قلبه للعجوز، الذي ملأت الدموع عينيه، لقد شعر بوحدته، كم عانى من تلك الفجوة!؛ لكنه وجد أخيرًا قلبًا يعطف عليه، قلبًا يستمع لأحزانه.

اليوم سيذهبان معًا؛ إلى قسم الشرطة؛ ليعرفا نتيجة البحث، نهضا معًا وخرجا من المسجد.

لكنهما وجدا المرأة، في مكانها تقف، وتنظر إلى الناس من حولها، تردد جملة واحدة غير مفهومة.

- تقول: (كانت ستصبح فتاة جميلة) وكنت أحلم أن تكون لي يومًا. لكن بسبب فقري، وقلة حيلتي، تنازلت عنها، لقد سقطت مني هنا، تكرر هذا الكلام على المارة.

لم ينتبه (باسل) من كثرة كلامها المتكرر، أن المرأة تبحث عن فتاة جميلة، ربما تكون (تميمة) أو غيرها.

ركبا السيارة، وذهبا معًا نحو أمل جديد، فقد قررا البحث عن امرأة؛ سقطت من قلبها الرحمة، امرأة تركت رضيعتها تمكث في الظلام وحيدة.

عندما وصلا للقسم، وجدا الموظف يحمل في يديه ثلاثة ملفات، لقد وجد بين أكوام الأوراق القديمة الصفراء، ثلاثة محاضر، بنفس التاريخ الذي عثر فيه الشيخ حسن - رحمه الله- على الطفلة، كل محضر بنفس صفاتها، بيضاء وعيناها زرقاء

وشعرها أصفر. لقد شعرا باليأس، فالبحث عن ثلاثة أسر أمر صعب.
لكن لاح أمل جديد، فبين هؤلاء الثلاثة يوجد ولد، إذن تبقى أسرتان تبحثان عن بنت تحمل نفس الصفات.
حمل باسل عنوان كل أسرة منهن ورحلا.
لكن في زاوية الدرج؛ كانت هناك أوراق مهمة، لم يشاهدها الموظف، ذلك المظروف الأزرق بداخله معلومات قيمة.
فهو إحدى البلاغات التي، لم يفتحها الموظف.
كان بلاغًا من امرأة معاقة ضد والدتها، امرأة معاقة تتهم والدتها؛ بأنها خطفت طفلتها، وألقتها في الشارع، لكن لم يهتم أحد بهذا البلاغ، ربما لقلة الأدلة أو أن هناك يدًا؛ تخفي الحقيقة.
خرج باسل ويوسف متجهين إلى أول أسرة، أسرة الحج مصطفى (بائع الذهب) فهو رجل ثري، وله الكثير من الأعداء، يمتلك منزلًا ضخمًا وجميلًا.
عندما وصلا إلى بيته؛ لم يستقبلهم بنفسه، أو تقابلهم زوجته، بل قابلهم ابنه؛ الذي أسعده كثيرًا؛ خبر العثور على أخته المفقودة. ولأن والده لم يعد يصدق كلام أي شخص؛ يقول أنه عثر على طفلته.
طلب منهما أن يقابل أخته، وقال: أين هي؟ لماذا لم تأتِ معكما؟.
صمت باسل قليلًا؛ ثم قال: تعال معي وسوف تشاهدها الآن. اتجه باسل بسيارته، نحو المستشفى، ومعه يوسف ومحمد بن الحج مصطفى.
عندما وصلوا إلى باب غرفتها، طلب منهم أن يخبروا الطبيب، بأنهم أقرباء لها، ولا يقولوا أنهم غرباء عنها.

تعجب محمد من كلامه، لكن هز رأسه بالموافقة.

كان خلف باب الحجرة قلبان، قلب يدق بالحب، يعشق لأول مرة، يرى في تميمة البراءة والنقاء، هو قلب الطبيب، صاحب العينين الخضراوين، وقلب ذبحه الحب، وذاق مرارة الهجر والفراق، وقرر أن يعيش في جسد معذب، وهو قلب تميمة؛ الذي قتله نديم، عندما تركها ورحل.

دخل باسل عليهما، فوجد الطبيب ممسكًا بيدها، كأنه يعد نبضات قلبها الضعيف، فاستأذن من الطبيب أن يرى محمد أخته، تعجب الطبيب من كلامه، فمنذ متى لها أخ يسأل عنها؟.

عندما شاهدها محمد؛ لمعت عيناه بالحب والحنان، و ظهرت على ملامحه الدهشة، فهي تشبه أخته كثيرًا، نظر لها جيدًا، وتفحص ملامح وجهها بعينيه، حتى أن عينيه ارتدت له حزينة.

نعم، هي تشبه أختي، لكنها ليست هي، تذكر كلام والدته؛ أن ابنتها تحمل على خدها علامة مميزة، فلديها غمازة في خدها الأيسر فقط، لم يجدها في وجه هذا الملاك النائم. خرج من الغرفة مفطور القلب، تمنى في نفسه، لو كانت هي أخته، لكي يرتاح قلبا أمه وأبيه من الألم. ود لو كانت تلك الفتاة أخته؛ ليريح قلبها المفطور، لكن هيهات. - فهنا يقبع الألم في كل صدر، هنا نيران تجمع ما تبقى من الأرواح المعذبة. ورحل متأسفًا على واقع مرير، يعيشه كل يوم بسبب أخته. جلس باسل في الغرفة على الأرض، وتعلقت عيناه بوجهها، هذا الوجه البريء؛ الذي أشقاه الوجع. فأمسك يدها، ثم قال:

- لقد عجزت أمامك يا عزيزتي، عجزت أموالي ونفوذي، كيف لوردة مثلك أن تعيش في الأشواك؟ اخترتِ الرحيل في صمت، ولكنك تركتِني معذبًا.

تتساقط الدموع من عينيه؛ في انهمار عجيب، فقلبه مشفق على فتاة ليست من صلبه، فلماذا كان قاسيًا على نور ابنته؟. وكان يوسف يقف خلفه، ينظر إليه بتعجب شديد، ويفكر. تلك الدموع التي على وجهه ما سرها؟.

هل هي نيران حب مدفون؛ تكوي قلبه المكلوم؛ فتسقط منهمرة على خده؟ أم أنه يشفق بالفعل عليها؟. أفكار سوداء طافت بفكره، يُخبره عقله؛ بأنها فتاة فقيرة لا حول لها ولا قوة، عاشت في بيته أكثر من خمسة أعوام. فتاة جميلة مثلها، كيف لم يتعلق قلبه بها؟ كيف قاوم جمالها؟. - وقف شارد الفكر؛ يحيط بعقله عالم من الشكوك والأحزان والأوهام، تجعله لا يفهم تلك العلاقة الروحية الطاهرة، التي ربطت بين باسل وتميمة.

لم يستوعب عقله، أن الله يسخر للإنسان، بعض البشر، ويزرع في قلوبهم الحب والعطاء له، ففي تصرفه حكمة ما؛ لا طاقة لعقولنا نحن البشر في فهمها، وأن الله لا يترك أحدًا.

أحداث كثيرة، تدور داخل عقله، لكنه مد يده بصعوبة، وربت على كتف العجوز.

انتبه لنظرات يوسف الممتلئة بالشك، فنهض وترك يدها، غادرا معًا؛ متجهيْن نحو المسجد، كأنه أصبح الاتجاه المتصل بينهما.

لكن وأثناء سيرهما؛ دار حوار غريب، قال يوسف:

- -غدًا نذهب إلى الأسرة الثانية، ربما نجد هناك الخير كله إن شاء الله.

هز رأسه وهو صامت، لكن عينيه قالت الكثير، وصمتا مع سكون الليل. مكثت هي وحيدة في غرفتها، يتلو قلبها تراتيل الحب والعشق، فقد أصبح قلبها عدوًا لعقلها، أصبحت تواجه حربًا نفسية شرسة.

وفي منتصف الليل، عبثت يد غريبة بباب الغرفة، تحاول أن تفتحه؛ فينفتح بسرعة؛ ليبرز وجه الطبيب من خلفه.

ماذا يفعل الطبيب ماجد في غرفتها؟.

يدخل متخفيًا عن الأنظار، فهو لا يريد أن يعرض نفسه للخطر، كانت في يده وردة حمراء، يفوح منها العطر، وردة قطفها بيده.

يمد يده ويسحب كرسيًا، ويجلس بجوار سريرها، تتسمّر عيناه في وجهها، يحدق بعينيها وشفتيها، يغرقٍ في بحور الصمت المكلل بالجمال، يتنهد من قلبه، فيشتعل حريقًا، يحرق كل مباديً الحياة؛ التي تعلمها منذ صغره.

نعم، لقد أحب مريضته، وذاب في كل تفاصيلها، هذه الأميرة النائمة أصبحت حلمه الوردي.

قرر أخيرًا أن يعترف لها، وأن يُعرض وظيفته ومستقبله للخطر من أجلها، فلو شاهده أحد من المسؤولين عندها في هذا الوقت، سيترك عمله.

لقد أنساه الحب؛ أنه طبيبها، ونسي القسم الذي تلاه في حفلة تخرجه، لقد نسي أشياء كثيرة، لم يتذكر غير حبه لها.

قال بصوت دافئ، وقد بدأ الكلام بجملته الشهيرة:

- أيتها الأميرة النائمة، أعلم أنكِ تشعرين بي، وتتأثرين بحروفي قبل كلامي، عليكِ أن تنهضي من هذا اليأس المخيم على عقلكِ، عليكِ أن تواجهي العالم كله.

- دعينا نتعرف من جديد، أنا ماجد، طبيب وجراح مخ وأعصاب، ومعالج نفسي أيضًا، أعمل هنا منذ سنتين، كنت أشعر بالإحباط واليأس، حتى وصلت أنتِ، اهتممت بحالتك، عشت معك تفاصيل مرضية كثيرة، ربما جذبني نحوك قصة حياتك. فقد أخبرني الأستاذ باسل قصتك، وما عانيت بسبب جهل المجتمع وحقده، لكن يا صديقتي أنا مثلك، عشت يتيمًا؛ مع زوجة أب قاسية الطبع والخلق، لم أر والدتي يومًا. لقد وهبتني الحياة وماتت، عشت حياة كلها خداع ونفاق، علمتني كيف أتحول من ملاك لشيطان في لحظة واحدة، علمتني الشر بجميع أنواعه.

لكن وسط هذا الظلام، كان لي صديقة منذ طفولتي، أختي الصغيرة (مريم) التي أنجبتها زوجة أبي، كانت ملاكًا لا تشبه أمها، رقيقة المشاعر مثل أبي؛ أبي الذي يخشي زعل وغضب زوجته، ويفضل أن تؤذيني على أن تغضب منه.

أردت أن أكون مثل زوجة أبي، لا مثله؛ فهو كان ضعيفًا، يجلس بجواري ويبكي، لقد كرهتها كثيرًا، تمنيت أن أقتلها أو يتخلص منها أبي.

لكن كانت الحياة أشد قسوة منها، فقد مات أبي وتركني لها، كنت أنا ومريم تحت أمرها، تعشق وتعز ابنتها مريم، أما أنا فليس لي نصيب في حبها؛ غير أنها علمتني، قدمت حياتها لي أنا ومريم، بالضرب والعنف، تعلمنا وكبرنا معًا، وفي المرحلة الثانوية شدت عليّ، أغلقت أمامي كل الأبواب إلا باب العلم، كانت تلبي لي أي طلب، فيه مصلحة لي، وتردد دائمًا إنها لن تدع تعبها كله يضيع.

صدقيني، لم أفهم شخصيتها للآن، لم أر غير قسوتها وتسلطها عليّ، لكن عند دخولي كلية الطب تبدلت معي، تغيرت كثيرًا، تحول عقابها لي وعذابها؛ إلى خليط ممزوج بالاحترام والحب المتبادل، تغيرت أحوالها معي، حتى شعرت بحبها لي.

ولكن قبل أن نعيش في سعادة، فرقتنا الحياة، ماتت زوجة أبي وأختي مريم في حادثة القطار الشهيرة، ماتت قبل أن تخبرني: لماذا كانت قاسية عليّ؟.

- صديقتي، أنا لا أعلم، لماذا أخبرك بكل هذه الأمور؟ لماذا أريد أن أخبرك عن كل شيء مؤلم مررت به؟. ربما أفتقد أختي، وأجدك تصلحين لهذه المكانة، أو ربما أحن إلى زوجة أبي - رحمها الله- أو ربما أخبرك أن الحياة بلاء وهم وتعب. فهيا يا صديقتي انهضي، تدحرجت دمعة من عين تميمة، تخبره فيها بأنها تشعر به، وتبكي من أجله، تبكي من الحرمان والقهر.

مد يده ومسح بوردته خدها، ثم نهض مسرعًا نحو الباب، بعد أن ترك الوردة، على خدها مبللة بدموعه ودموعها.

- رحل من غرفتها؛ قبل أن تعرف قصته، ولم يستوعب عقلها غير حزنه، لم يجذبها حنينه في الكلمات إلى الحب.

تتساقط الدموع من عينيها، لتصنع بؤرة ماء تحت خدها، تود لو تغرق روحها المعذبة فيها.

تشرق الشمس عليها، وتدب الحركة من حولها؛ لتعلن عن يوم جديد، يوم لن يكون فيه ماجد طبيبًا فقط، بل صديق أيضًا، لكنه من نوع خاص.

نعم، هو يوم جديد، سيعود الجميع لممارسة الحياة، ويتطلع العالم كله نحو المستقبل؛ إلا تلك القلوب المعذبة، القلوب الجامدة التي حولها الحب إلى حجارة مفتته، تذروها الرياح.
فهذا قلب نديم؛ يصرخ ألمًا وانكسارًا على حبه؛ الذي ضاع في تسرعه بقرار السفر، فبرغم سفره وبعده عنها لم ينسها، هو يعشقها وينتظرها حتى تعود.
لم يعلم أن الحب تحمل ومسؤولية، وهو لم يكن بقدر المسؤولية، فقرر الهروب من حب مجهول الهوية.
أيضًا قلب باسل ممزق الأطراف؛ فقد أكله الندم والحسرة، على زوجته وطفلته.
وقلب تلك البريئة النائمة، التي لم تستوعب قسوة الحياة عليها.
هناك قلوب كثيرة؛ مزقها الحب بصور مختلفة.
يدخل الطبيب مع الممرضة؛ لإعطاء تميمة جرعة من الدواء.
وجد الطبيب بعض التحسن في حالتها، ربما قررت بالفعل أن تقاوم مخاوفها.
يخرج من عندها مبتسمًا، ويترك الممرضة معها، تحاول أن تفهم سر تلك الوردة؛ التي على خدها.
- هناك في القصر الكبير، يجلس العجوز على مائدته بلا طعام، كأنه كره الأكل والشرب، كره الحياة من بعدها، يسرح في زيارته للأسرة الثانية أسرة (الحج إبراهيم).
ارتدى ملابسه، وقاد سيارته نحو المسجد؛ فوجد يوسف أمامه ينتظره؛ ليذهب معه إلى الأسرة الثانية، ركب معه بعد التحية والسلام. لكن هناك شيئًا مختلفًا في عيونه، فنبرة صوته بها

بعض الحدة، كأنه غاضب من صديقه، انتبه باسل لهذه اللهجة.
فبادره بالسؤال: ما بكَ؟ رد عليه قائلًا: لماذا لم تتزوجها؟.
لو تزوجتها؛ كنت قد ارتحت من عناء البحث ومشقته، وكنت منعت النفوس المريضة من الكلام.
لكن عن أي نفوس مريضة يتكلم، لم يحاول الناس تقبل فكرة وجودها بلا أب وأم، الجميع ينظر لها على أنها نكرة، شيء لا يذكر.
لقد فضل باسل الصمت على الكلام، ثم قال: سنجد أمها اليوم إن شاء الله.
لقد تهرب من إجابته على السؤال، لأنه شعر بنبضات قلب يوسف، لقد بدأ ينبض بالحب؛ لكنه صاحب مبادئ وقيم، ولن يتقبلها بوضعها هذا.
وعم السكون والهدوء المكان، حتى توقفت السيارة في شارع صغير، خلفه حارة قديمة، وبيوت تكاد تسقط على رؤوس أصحابها.
نزلا، وأخذ كل منهما، يبحث عن "الحاج إبراهيم" حتى عثرا على رجل، يجلس أمام محل لبيع الأحذية.
- سألاه معًا: أأنت الحاج إبراهيم؛ الذي فقد طفلته منذ عشرين عامًا ؟
كان شكل الرجل فقيرًا، يظهر على ثيابه الفقر والحاجة.
- قال: من أخبركما بقصتي؟ ومن أنتما؟ وماذا تريدان مني؟.

- رد باسل: يا عم إبراهيم، نحن لدينا فتاة تبحث عن أهلها، وجدنا تلك الطفلة، بتاريخ كذا، ونريد أن نعرف منكَ، هل أنتَ والدها أم لا؟.
- قال لهما: لا، لست أنا والدها.

ظهرت معالم الدهشة على وجه باسل، وقال له:

- هل وجدت ابنتك؟.
- رد عليه: نعم وجدتها، بعد البلاغ بيومين، لقد اعترفت لي زوجتي أنها تخلصت من الطفلة؛ بسبب فقرنا، لكونها الابنة السابعة؛ فلدينا غيرها ست بنات، تخلصت منها عند أخت لها. لكن قلب الأم؛ جعلها تعترف بعد يومين على فعلتها.

لم أخبر أحدًا بذلك، حتى لا تسجن زوجتي، لكن ابنتي هنا في حضني.

مد باسل يده نحو مقعد بجوار العجوز، وجلس عليه بإحباطٍ شديدٍ.

لم يعد هناك مكان يوجد على الأرض، قد يساعده على تحمل كل هذه الهموم.

أنهضه يوسف من فوق الكرسي، وربت على كتفه بحنان، تركا العم إبراهيم في مكانه، وغادرا الحي القديم، وانطلقا بالسيارة نحو المسجد، وعندما بلغاه نزل يوسف وحده، ورفض باسل النزول من مكانه، وأفصح ليوسف؛ بأنه قرر أن يكذب على تميمة، قرر أن يعطيها أملًا كاذبًا؛ لتعيش في سعادة.

مد يوسف له بعض الماء، وطلب منه أن يصلي، ثم يدعو الله، وأن لا يكذب عليها.

- تنهد باسل بحسرة، وبحث عن أمل حوله، أمل يقوده للحقيقة، لحقيقة ابنته ولكن لم يجدها.
رن هاتفه، وهو يقود السيارة متجهًا للمستشفى، لم يهتم ولم يرد عليه، لكن الرقم كان لصديقه عادل، صاحب شركة مقاولات، لديه مشروع جديد يعرضه عليه، وباسل الآن منشغل.
لم يخبر باسل أحدًا بموضوع تميمة، لكي لا يعرف أي شخص حقيقة الأمر.
فعادل يسكن قريبًا من قصر باسل، وهو يعرفه وسبق التعامل معه، لكن لا يريد الدخول في مشروع، يمتلك نصفه رجل ظالم اسمه شوقي، فاسم شوقي لا يتكرر إلا في المصائب والمحن، قاد سيارته متجها إلى ابنته.
عندما وصل إلى غرفتها، كانت الدموع قد ملأت عينيه، هو لا يعلم ماذا يقول لها؟ هل يخبرها الحقيقة؟ أم يكذب عليها ويهديها أملًا كاذبًا؟.
جلس بجوارها، ومد يده؛ ليضم يدها، ثم قال لها:
- أعلم أنكِ تستمعين لكلامي، وأنكِ تشعرين بوجودي، وأعلم أيضًا أنكِ قويةٌ، منذ كنتِ طفلة، كنتِ تعملين مع والدك في دكانه، وتساعدين زوجته في أعمال المنزل، لم تشتكي يومًا من الفقر، وكنت له نعم البنت التي لم ينجبها.
لقد عانيتِ من الفقر كثيرًا، منذ وفاة والدك، ثم زوجته ثم هلاك بيتك في السيل، لكنكِ لم تضعفي وقتها ولم تستسلم. وعندما جئت للعمل عندي، كنتِ قوية، لم تلمع عيناكِ للذهب، لم تفرضي

عليّ مشاعرك، لم تهربي من فقرك إلى ثرائي، كنت عفيفة في كل شيء، حتى في مشاعرك نحوي.
لقد تعلمت منكِ أن الحب عطاء، عطاء بلا قيود، لم تنتقمي من مجتمعك أو تحقدي عليه، لم تهربي وقت ضعفك وقت وجودك وحيدة؛ بلا أهل ولا مال ولا بيت، فلماذا تهربين الآن؟. - كل شيء حولك عزيزتي متاح، كل العيون تتمنى رضاكِ، أعلم أنكِ ضعفت أمام حبكِ لنديم، واستسلمت لهذا الحب الضعيف، لكن الحب ليس ضعفًا أو انهيارًا، بل قوة تجعلك حصنًا منيعًا لمن تحبين.
لقد تركك وهرب، وأنتِ هنا وحيدة، لم يقدر مشاعرك وإحساسك المرهف، لم يهمه إلا قلبه، فمثله غاليتي، لن يتحمل المسؤولية يومًا.
لقد أرسل لي ليلة أمس، رسالة يسألني عنكِ، ويطلب مني أن أسامحه، لكن لهفته عليكِ، تؤكد لي أنه يتعذب، إنه مازال يقاوم حبك.
جئت إليكِ اليوم أجر خيبتي، أعجز عن الكلام أمامك، جئت لأخبرك أنني لم أجد والدتك، بحثت عنها في كل مكان، استخدمت كل أساليب البحث.
أنا تعذبت في بعدك كثيرًا، لكنني لن أكذب عليكِ، فمن حقك أن تقرري، متى تعود تميمة للحياة؟ ومتى تموت وحيدة؟لكنني أثق بكِ، وأعلم أنكِ أقوى من كل الظروف، وأنتظر عودتك غاليتي، أنتظر سطوع نجمتي في عالمي المظلم.
شعر في هذه اللحظة، بأن يدها تتحرك، تمسك بيده بقوة، تتشبث بأنامله، وتعانق روحه.

لقد قررت أن تعود للحياة، تعود من أجل هذا الرجل، الذي أحرقه حبه لها، همست ببعض الكلمات، فهرع يطلب الطبيب، لقد تحقق الحلم، وستعود؛ لتنير عالمه من جديد.

جاء الطبيب مسرعًا، يؤكد له أنها بدأت تستعيد وعيها، بدأ مخها في إصدار الأوامر لجسدها.

خرج سعيدًا وفرحًا، ذهب يصلي شكرًا لله؛ على عنايته ولطفه، ويبشر يوسف أن ابنته تعود للحياة.

لكنه لم يجده في المسجد، سأل عن عنوانه، فأخبره أحدهما بعنوان بيته، اتجه نحو بيته؛ دون أن يتصل ويطلب موعدًا لزيارته، وعندما طرق الباب، لم يجبه أحد، فهو أيضًا ليس في بيته.

شعر باسل بالخوف عليه، فأمسك هاتفه واتصل به، لكن يوسف لم يجب أيضًا على الهاتف.

تزاحمت الأفكار في رأس باسل، فركب سيارته وانطلق، نحو بيته، وفي منتصف الطريق اتصل به الطبيب؛ ليخبره أن تميمة بخير وحالتها تستقر، لكن ليس هذا غرض الاتصال.

فماجد شاهد (يوسف) يدخل حجرتها، ويجلس معها منفردًا، يتكلم معها كأنه يعرفها، فدبت الغيرة في قلبه، فأراد أن يعرف قرابته لها.

لقد سبق وأخبره باسل، عندما جاء مع محمد بن الحج مصطفى، أن محمدًا أخوها ويوسف ابن عمها.

ربما شعر بأن باسلًا يكذب، لقد استكشف ذلك من نظرات يوسف الحادة لها.

فأراد أن يفهم ما يدور حوله، لكنه اطمأن عندما أخبره بأنه في الطريق إليه.
بينما يجلس يوسف بجوارها؛ يتحدث عن الأخلاق والقيم والمبادئ والعادات والتقاليد، يبث بداخلها الإيمان بالقضاء والقدر، والرضى بحكم الله.
تفتح تميمة عينيها للحياة، لقد أشرقت الشمس في قلب يوسف، الذي نسي كل ما قال.
نسي المبادئ والقيم، ونظر لجمال عينيها دون خجل.
في هذه اللحظة المميزة، دخل الطبيب وهو مبتسم، لقد استيقظت الأميرة النائمة بدون قبلة، لم تطلب إلا بعض من قطرات الماء، تناولته ثم نامت مرة أخرى؛ لتستعيد صحتها. طلب الطبيب من الجميع الخروج؛ فخرج يوسف بعد أن فقد روحه هناك؛ عند تلك العيون الزرقاء.
سار متجهًا نحو باب المستشفى، فوجد صديقه أمامه، احتضنه وبارك له شفاء ابنته، لكن اليوم شيء غريب يحدث، بعض النظرات المتبادلة بينهما تنذر بالخطر، رحل كل منهما متجهًا في طريق مختلف.
اتجه باسل نحو غرفتها؛ ليشاهد سطوع نجمته، لكنه وجدها نائمة، فذهب لبيته.
ويوسف اتجه نحو مسجده، لكنه يفكر بشدة، يعتصر قلبه الألم، يقاوم تلك الأفكار السوداء.
يرفض الدين والعقل والمنطق، وجود فتاة في بيت رجل غريب عنها، دون وجود صلة رحم، كيف تقبلت هذا الوضع؟. يوسف غارق في الأفكار، ويقترب من المسجد.

هناك امرأة كبيرة في السن، تقف وهي تبكي، فجلس بجوارها؛ ليستمع لكلامها، لقد جاءت تطلب العفو من الله، فهي ليست متسولة.

عندما سألها قائلًا:

- ما بكِ يا خالتي؟
- أجابته على الفور: أنها تبحث عن فتاة صغيرة، عمرها أسبوع، فظن أن المرأة بها خلل في عقلها، لأنه لم يسمع بأحد هنا، وجد طفلة من قبل.

نهض من جوارها، فتعلقت بيده، وطلبت منه المساعدة، أخرج من جيبه بعض النقود، فهزت رأسها بالرفض.

- وقالت: ادعُ لي ربك؛ أن يغفر لي ما فعلته، ولا يعاقبني. فقد كنت أعمل خادمة، عند امرأة ثرية، منفصلة عن زوجها، ولديها ابنة معاقة، شديدة الجمال.

كانت تلك المرأة تخبئها عن العالم كله، فهي برغم جمالها ترفض إعاقتها، فتخبئها حتى لا يعرف أحد؛ أن لديها ابنة قعيدة، لم تعطف عليها يومًا.

ولم تعطها لوالدها؛ الذي كان يعشقها، كنت أنا أمها الوحيدة، أهتم بتفاصيل حياتها، حتى كبرت أمامي، وأصبحت عروسًا، رفضت أمها أن تزوجها.

فجاءت رياح الحب، تدق بابها بعنف، لقد أحبت البنت جارها، وكان شابًا فقيرًا، تزوجته دون علم والدتها.

كنت شاهدة على قصة حبهما، وأنه تقدم لوالدتها كثيرًا، وأمها ترفض في كل مرة، حتى ضاقت بهما الدنيا، وتزوجها رغم

رفض والدتها، فقد أخذت موافقة والدها على الزواج، وبالفعل زوجها والدها له، وتم الزفاف.
ولما علمت أمها أنها تزوجت، قطعت صلة الرحم بينهما.
عاشت الفتاة سعيدة مع زوجها، لكن الموت خطف زوجها، بعد ثلاثة أشهر من زواجها، وأصبحت البنت وحيدة وهي حامل.
كنتُ كثيرًا أذهب لها بالطعام والشراب، دون علم والدتها.
ولكن في إحدى الليالي، طلبت مني سيدتي، أن أذهب لابنتها وأحضرها لبيتها، فالناس بدأت تتكلم عنها بالسوء؛ بسببها.
ذهبت مسرعةً نحوها، أبشرها بالخبر ، فلاحظت ملامح التعب والمشقة، قد ظهرت على وجهها، وقد قاربت على الولادة، حملتها لبيت والدتها؛ وكانت في حالة يرثى لها.
عندما رأتها الأم؛ لم تخاطبها أو تكلمها، وقالت لها:

- جلبت لي العار وكلام الناس، خرجت من البيت، وتزوجت رجلًا لم أرضَ عنه يومًا، وجئت وأنتِ تحملين؛ بقايا رجل أكرهه، فلا تنتظري مني أدنى عاطفة عليك أو عليه.

ومرت الشهور عليها، وجاءت لحظة الولادة، لقد أنجبت بنتًا جميلة؛ لكن بعد ولادتها، أعطتني سيدتي الطفلة، وطلبت مني التخلص منها.
في هذا الوقت كنت أحتاج المال كثيرًا؛ وسيدتي أعمت عيني بالأموال، وأغواني الشيطان؛ فجدتها التي من لحمها ودمها، أمرت بالتخلص منها.
أخذتها معي لبيتي، لم أستطع قتلها أو رميها، لقد كان والدها طبيبًا، يعالج الجميع بدون مقابل، كان عطوفًا ورحيمًا.

لكن بعد يومين، تخلصت منها هنا، وضعتها في ثوب جميل، ووضعت في رقبتها تميمة زرقاء، حتى تحفظها من الشر.
ووضعتُها بجوار هذا المسجد؛ فأخذها رجل وانصرف، لحقتُه حتى باب البيت، وعرفتُ أنها أصبحت بخير؛ فتركتُها ورحلت.
وعندما عدتُ، وجدتُ أمها وكان اسمها (زهرة) حزينة على فقدان ابنتها، لم أتحمل عذابها أمامي.
لقد أخبرتها أمها، أن طفلتها ماتت، لكن أمام حزنها الدفين كل يوم؛ أخبرتُها بالحقيقة، أخبرتها أنني شاهدت والدتها، تطلب من ممرضة؛ أن تتخلص من الطفلة، أو حتى تقتلها.
نعم، لقد كذبت، لأنني بعد يوم من تركها، ذهبت إلى بيت الرجل فلم أجده، واستمررت في البحث عنه، فلم أجده.
لذلك كذبتُ عليها.
وعندما علمت بالأمر، ارتفع صوتها عاليًا بالصراخ، واتجهت بكرسيها نحو غرفة والدتها؛ وهي تصرخ؛ وتحاول أن تقتل والدتها، لم يعطف قلب الأم على ابنتها القعيدة، بل كانت تنظر لها نظرة حقد.
فأم زهرة لم تحصل على الحب، الذي حصلت عليه ابنتها.
لكن زهرة لم تستسلم، بل ذهبت مسرعةً نحو مركز الشرطة؛ وأبلغت عن والدتها، وبداخل مركز الشرطة، تم حفظ البلاغ، بناء على رغبة رجل أعمال معروف، فهو السبب في كل ما حدث، ضعف الأمل عند زهرة؛ في العثور على طفلتها، وحاولت الانتحار أكثر من مرة، لكنها لم تفلح، ففي كل مرة تحاول فيها الإنتحار؛ أنقذها بصعوبة.

لجأت سيدتي بعد عام، إلى حيلة جديدة؛ للتخلص من ابنتها القعيدة، ومن اتهام والد زهرة لها بقتل حفيدته، استعانت (بشوقي) أخيها؛ الذي قرر أن تلحق ابنتها بمستشفى للأمراض العقلية.
لم يستطع والد زهرة حمايتها من والدتها وخالها، فكرههم لوالدها؛ كانت تحصده زهرة، ومر عام عليها؛ ثم ودعت زهرة عالمنا، وأصبح البيت يشبه الأشباح.
لقد انتحرت زهرة، بداخل المستشفى، ولم يستطع حمايتها أحد، وانتشر الوجع في قلب والدتها، وبدأت تشعر بالندم، كانت تراها تقف أمامها كل يوم، وتطلب منها ابنتها، ذهبت إلى أخيها تطلب مساعدته؛ فنهرها عن فعل ذلك، فكل أموال سيدتي ستكون من نصيبه هو وأولاده.
جلست سيدتي في ليلة مظلمة، وجلست بجوارها، واعترفت لي بأنها نادمة، وأن ابنة زهرة حصدت كره تلك العائلة لزوجها. ابنة زهرة كانت ضحية لعائلة مفككة، الكل يبحث فيها عن شهوته، ولذته وعن الأموال.
ومن شدة الندم؛ كانت سيدتي تبكي كل ليلة، حتى أنها كل يوم تطلب مني البحث عن الطفلة، لكن ذلك الرجل أخذها ورحل.
ومنذ شهر توفيت سيدتي، بعد عناء مع المرض، وهي على فراش المرض، طلبت مني أن لا أتوقف عن البحث عن الطفلة، حتى أموت مثلها. وجلست تبكي وتئن، على ذنب لن يغفره الله لهما؛ حتى يعود الحق لأصحابه.
أشفق يوسف عليها وسألها:
- هل عرفت اسم هذا الرجل الذي أخذ الطفلة؟.

- أجابته: نعم، اسمه الشيخ حسن، وكان يعمل هنا إمامًا، ولا يوجد له أهل، ولا يعرفه أحد.

لقد صعقته بكلامها؛ هي تبحث عن (تميمة) تأتي كل يوم هنا، يراها الجميع هنا، لقد رآها من قبل باسل.

تسرع يوسف بكلامه معها، وقال لها:

- أنا عثرتُ على طفلتك يا خالتي، وأعرف الشيخ حسن.

لم يتحمل قلبها الخبر، ومن فرحتها؛ سقطت تلفظ أنفاسها الأخيرة، وهي تقول بعض الكلمات؛ التي لم يفهمها يوسف.

فحملها وانطلق بها نحو المستشفى؛ لكنها ماتت، ومات معها السر، لم يعرف يوسف ما اسم العائلة؟

لم يعرف ماذا يفعل الآن؟.

لقد أخبره الطبيب أنها ماتت، ويطلب منه تصريحًا بالدفن، لكن يدفنها هو دون وجود أهلها.

لقد أخبر الطبيب؛ أنه سيذهب ليحضر أهلها.

ووقف باهت الوجه، على وجهه ألف سؤال، لأنه لا يعلم حتى اسمها.

أمسك بهاتفه، واتصل بصديقه باسل، وطلب منه الحضور فورًا، وأخبره أنه بداخل مستشفى حكومي.

جلس على الأرض يفكر، كيف يتصرف في هذا الموقف العصيب؟.

إنه الحظ السيء؛ كان على مقربة من الوصول إلى الحقيقة.

الغريب أنه يشعر الآن بالتحسن، فهو يعرف الآن؛ أنها ليست لقيطة، بل ضحية، ضحية مجتمع يحقد على بعضه.

أمسك حقيبة المرأة العجوز، وأخذ يبحث بداخلها عن عنوان أو هاتف، عن أي شيء يصله بأهلها، وجد بطاقتها عليها عنوانها، اسمها (رضا) تسكن في إحدى الأحياء المشهورة القديمة، ووجد كيسًا ملفوفًا بشكل يلفت النظر، لم يفتحه، ووجد مفتاحًا صغيرًا، والقليل من المال.

أعاد كل شيء، ووضعه في الحقيبة كما كان، وحملها معه، وعندما خرج من المستشفى، وجد باسلًا، ركبا معًا السيارة.

انطلقا إلى عنوان تلك المرأة، وفي الطريق أخبره بكل ما حدث.

وقال له:

- إنها ليست لقيطة، بل هي ابنة لأسرة محترمة.

كان سعيدًا؛ وهو يخبره بذلك، سُر وجه باسل بهذا الخبر أيضًا.

وانطلقا مسرعين نحو بيت المرأة، لم يجدا في البيت أحدًا.

أخبرهما الجيران؛ أن المرأة تعيش وحيدة، وأن لها ولدًا؛ يسكن بالقرب من بيتها.

فأخبرهم أنها ماتت، ولا بد من استلام جثتها.

دُهِشَ يوسف وباسل من ردة فعل جيرانها، لقد تجمع عدد غير قليل منهم، وانطلقوا نحو المستشفى، وهم يرددون: إكرام الميت دفنه. وبعد نصف ساعة، جاء ابنها يبكي ويئن، رجل يظهر على ملامحه الفقر والاحتياج.

جلس الجميع بعد دفن الجثمان، وانتهى اليوم من أوله لآخره، وهما يجلسان وسط الجيران؛ يستمعان إلى كل كلمة قيلت عن هذه المرأة. لقد شهد الجميع لها؛ بأنها امرأة صالحة، دائمة البكاء والندم، بداخلها حزن رهيب، وسر لم يعرفه أحد، تحب الجميع من حولها، لم تكن قاسية يومًا على أحد.

بعد انتهاء العزاء، غادر يوسف وباسل ومعهم القليل من المعلومات.
لكن يوسف لم يعط ابنها الحقيبة، بل احتفظ بها؛ لكي يجد حجة يعود بها مرة أخرى، ويسأل عن ابنها.
على ملامح باسل، يظهر الحزن جليًا، فتميمة لن تكون ابنته بعد اليوم، ربما تقرر العودة لأهلها، تقرر البحث عنهم.
لأول مرة يشعر بالخوف؛ من ضياعها منه.
أخذ يفكر، ماذا سيقول للناس، الذين يعتقدون أنها ابنته؟ كيف يواجه مجتمعه المريض؟.
لابد أن يقنعها بعدم البحث عن أهلها، يكفيها أنها ليست لقيطة، بل نتاج زواج يكلله الحب.
نعم الحب، فالحب يصنع المعجزات، يعلمنا أشياء لا نعلمها، يرسم على وجوهنا، السعادة بكل أنواعها، يظهرنا للأحباب بمظهر ملائكي، يجعل قلوبنا تنبض بالحب.
فهو بالنسبة لها ملاك، فهل لو علمت أنه السبب في موت (نور) ابنته؟ ستقول عنه ملاكًا.
آه ثم آهات، لو يتوقف العالم في لحظات معينة، لو بأيدينا أن نعيد الماضي، لكنتُ ركعت أمام زوجتي؛ أطلب منها الصفح والعفو، لكنتُ احتضنتُ ابنتي وقت موتها، كنتُ سأشعرها بأنها ليست وحيدة.
تتساقط الدموع من عينه على خده، فهو نادم حقًا على ماضيه، ماضي رجل غير مشرف.

كان السبب في تعاسة الجميع من حوله، وأيضًا السبب في تعاسة نفسه، لكن هذا الماضي تعلم منه معنى الحب، تعلم منه العطاء، وأن المال ليس كل شيء.

لكنه لم يتذوق الحب، فهو أبعد ما يكون عنه

بعكس ذلك الشاب الذي يجلس بجواره، شاب يضيع أحلامه بيده أيضًا. فيوسف برغم إعجابه بها، لن يغفر لها مكوثها مع رجل غريب في بيت واحد، وادعاءها بأنه أبوها، لن يغفر لها، لأنها خالفت العادات والتقاليد العمياء.

بينما (تميمة) تسترد وعيها، يجلس (ماجد) بجوارها، يُخبرها عن حياته الماضية، وفي يده وردة حمراء، يهمس لها في حنان،

- حان الوقت أن تنهضي، وتواجهي مجتمعك بقوة، أن تتحرري من تلك العبودية. أعلم عنك يا أميرتي كل شيء، ورغم ذلك أشعر أنكِ قمر ينير قلبي من الظلام، أرى في عينيك سمائي وبحوري، وفي ملامحك طفولتي الضائعة، كأننا عشنا معًا في زمن ما.

يعود بذاكرته للخلف، فهو يؤمن بعدم وجود الحب؛ في هذا العالم، فعالمنا مادي بحت، لكي تحصل فيه على الحب، لابد أن تدفع ثمنه.

يطلب منها أن تتوقف عن حب (نديم) يطلب منها أن تقتل قلبها، وتلك المشاعر، يخبرها أنها أقوى من الحب، بل أقوى من الجميع. يصدر عقلها إشارة إلى ذاكرتها، أن تسجل هذه المقولة (في عالمنا هذا، لا يوجد حب) فهذا رأي ماجد؛ الذي يخبرها أنه يحبها.

تشعر أنها قد تعلمت من تجربتها السابقة، تعلمت أن لا تقع فريسة سهلة، لأي أحد مرة أخرى.
فيستعد عقلها؛ لإحياء جسدها كاملًا، ما عاد قلبها ينبض؛ بل أمرت ضلوعها بمحاصرته، وسجنه في عالم الوحدة.
لم تعد تستمع لكلام ماجد، لم يعد قلبها يشعر بالحسرة، لقد توقفت دموعها، وتغيرت ملامح وجهها.
أصبحت أنثى مستبدة، أنثى قررت الإنتقام، أنثى قررت العودة من الموت، بل قررت أن تنهض هي، وتصنع المعجزة. انتهى الليل، وماجد ممسك بوردته، يقول الكثير من الكلام، المنمق بمقاطع الآهات، التي لم تعد تستمع لها.
ومع إشراقة الشمس، يضع الوردة على خدها، ويفر هاربًا قبل أن يراه أحد.
دبت الحركة في المستشفى، وفي كل مكان، تشرق الشمس الجديدة، ومع دخول أول شعاع لغرفتها، يهبط على فراشها.
تنهض من موتها، وتهرب من الجميع، تنفض عنها مرض ثلاثة أشهر، مرت عليها كسواد الليل وقهره.
تسمع أصوات العصافير على الشجر؛ فتتذكر العجوز، تحمل جسدها الضعيف، وتهبط إلى الحديقة، تنزوي ناحية شجرة، هي لا تعرف طريق بيتها؛ فتختفي بين الأزهار.
يدخل الطبيب والممرضة الغرفة، كعادتهما كل يوم، لكن دُهِشَ الجميع، فالمريضة غير موجودة، تصرخ الممرضة:
- لقد اختفت المريضة، ألم يشاهدها أحد عندما تركت غرفتها؟!.

الجميع في حيرة؛ المريضة ليست على سريرها، يخرج الجميع؛ ليبحثوا عنها، وتهتز المستشفى؛ لهذا الخبر العجيب، فالمريضة كانت هنا منذ ساعة.
أخبرت إدارة المستشفى أباها بالأمر، الأمر الذي جعله كالمجنون، يقود سيارته بسرعة، يظن أن أحدهم قام بخطفها.
وعند باب المستشفى، رآها تجلس خلف شجرة الصفصاف العظيمة، تجلس كملاك يشبه القمر؛ بل أجمل من القمر، كأنها انعكاس صورة القمر على العشب، ترتدي ثوبًا أزرق، إنها هي ابنته، تلك اللؤلؤة الضائعة.
يركع أمامها، وهو يبكي من فرحته، لقد عاد نجمه الآفل، عاد بعد غياب، يمسك يدها بحنان، فتنظر إليه متعجبة، قالت: لماذا تبكي يا أبي؟ لقد عدت أمسح تلك الدموع.
نهضا معًا، ودخلا سيارته، بعد أن أنهى دفع حساب المستشفى، كانت لا تنظر إلى أي شخص حولها؛ غير باسل. تلمع عيناها عندما تنظر له، تتلاشى النظر في وجه الطبيب؛ الذي تعجب من ردة فعلها، ماذا يحدث؟ هل نسيت من أنا؟.
تفضحه عيناه من خلف زجاج نافذة مكتبه، يتطلع في ذلك الوجه الذي سيغيب، ولن يراه مجددًا.
تنطلق السيارة، وهي تحمل بداخلها ابنته وقلب ماجد.
لكن تلك الفتاة؛ ليست تميمة الرقيقة الحنونة، بل هي بقايا امرأة حطمها الحب. امرأة قررت أن تصنع الكثير في حياتها، فهي لن تكون ضعيفة مرة أخرى، في عقلها ألف فكرة ومائة قرار.
يجذبها كلام العجوز، عزيزتي:

- لقد عرفنا أسرتك، وعرفنا أنكِ نتاج أسرة ولستِ لقيطة، وأن أباكِ كان طبيبًا، وأن أمكِ كانت تبحث عنكِ، ومات الاثنان قبل رؤيتك.

هنا تغيرت ملامحها، وظهر على وجهها ألف تعبير وتعبير، لقد استمعت للحوار كاملًا منه.

لكنها ركزت على اسم (يوسف) ذلك الشاب الذي اكتشف، وعرف مكان أسرتها، لقد سبق وسمعت منه كلامًا كثيرًا، فهو يوجه لها الاتهام بالخيانة والاستسلام.

مر الحديث بسلام؛ حتى وصلت إلى القصر، الذي أشرق ببهاء جمالها، الجميع في انتظارها.

لكن نظراتها حزينة، جميع الحوار الذي قاله باسل؛ يدور في رأسها.

مر اليوم كله؛ وهي في غرفتها، ترتاح من تعب المرض، لا يشغل بالها؛ إلا قصة أسرتها الجديدة، وكيف ستبحث عنها؟.

في المساء انتشر خبر وصولها إلى القصر؛ الذي امتلأ بالأهل والأقرباء، وحتى هؤلاء الغرباء، الذين قرروا الإحتفال؛ بعودتها إلى حضن والدها.

كان الجميع سعداء برجوعها، لكنها ليست مسرورة.

هي تشعر بالفراغ، والغل من المجتمع المنافق، لم يعد بداخلها سلام.

تجلس وسط الناس بلا روح، من باب القصر، يدخل رجل ذو مكانة مرموقة، حوله يلتف مجموعة من الرجال الأثرياء، يقابله باسل بوجه عابس، كأنه يكرهه.

بينما هذا الرجل يحتضنه ويقبله، ويقدم لها باقة من الزهور.

هي تشعر اتجاهه بالكره، كأنها تعرفه منذ زمن.
هذا الرجل اسمه (شوقي) رجل متسلق، صنع ثروته من الغش.
-هذه أول مرة تقابله؛ في حياتها، فركزت عينيها عليه.
لقد ظن أنه فاز بقلبها، أو أنها انجذبت إليه، أو أنها ستكون فريسته الجديدة، فهو معروف في وسط الأغنياء بالمتملق، سارق أموال النساء، ومرت الليلة، وغادر الجميع لحفل.
وبقيت هي وحيدة في غرفتها، تعيش بفكر جديد؛ إلا أنها تعاني من صوت نديم، فصدى صوته؛ يمزق جدار غرفتها.
أخذت تبكي بلا دموع، هل جفت دموع الحب من على خدها، هل فقدت قيمة الحب؟.
في الغرفة المجاورة، ذلك العجوز ينام ويغط في النوم ، كأنه لم ينم منذ سنوات، على وجهه علامات حب كثيرة، ودلائل دهشة عجيبة، لقد عادت الفرحة إلى قصره من جديد.
وتستمر الحياة من جديد، فتشرق الشمس، ويبدأ يوم جديد، يوم البحث عن حقيقتها، تخرج معه وتركب سيارته.
لقد قررت أن ترى ذلك المكان، الذي ألقتها فيه الخادمة.
عندما اقترب من المكان، أشفق على قلبها، طلب منها أن تتوقف عن البحث، أن تعود كما كانت ابنته فقط؛ لكنها رفضت طلبه.

- قالت له: لقد أخذوني من حضن والدتي ظلمًا، وماتت منتحرة من أجلي، وأنا طيلة عشرين عامًا لم أترحم عليها، بل كنت أدعو عليها، لابد أن أعرف من أكون؟ وأنتقم لأمي ولنفسي، لقد قررتُ ذلك، وأرجو منك المساعدة.

لقد شعر بقوتها، وجد نظرات التحدي؛ تملأ عينيها، فقرر أن يخوض معها التجربة.
وعندما وصلا لمكان المسجد، وجدا يوسف ينتظرهما، اقترب منه وسلم عليه، وطلب منه أن يروي كل شيء يعرفه لتميمة، التي فقدت تركيزها؛ لتتوه في لحظات شجن وحزن عميق، هز كيانها.
تخيلت منظرها وهي صغيرة، كقطعة لحم في منتصف الطريق، أسعدها مشاهدة طيف الشيخ حسن يحوم حولها، وطيف أم تميمة، كأنهما يطلبان السماح منها.
لقد هربا بها حبًا فيها، وليس انتقامًا منها، لم تستمع لحديثهما، بل كانت في عالم روحاني غريب، أطياف تلف حولها في كل مكان، لم تتجرأ على الوقوف أكثر من ذلك، لقد بدأت قدمها تغور في الأرض؛ فتشبثت بيد باسل، الذي أمسك يدها وأدخلها سيارته.
طلب منها الرحيل، والخروج من هذا المكان، أومأت تهز رأسها بالموافقة؛ فركب سيارته وركب معهما يوسف.
عاد الجميع إلى القصر، لكن لم تعد القلوب كما هي.
في منتصف الطريق، كان يوسف ينظر لها، نظرات حب مدعمة بعتاب، عتاب من نوع خاص، عتاب ممزوج بكبرياء رجل؛ يريدها أن تكون له وحده.
لكنها تقبع في عالمها، لن تخرج من ذلك العالم الأسود، لم تعد تهتم بتلك النظرات.
لقد كبرت على أن تصدق، أن في عالمها يوجد شيء اسمه الحب، ومرت الدقائق ووصلوا إلى القصر، أسرعت إلى غرفتها.

بينما جلس يوسف وباسل يخططان؛ كيف سيبحثان عن اسم هذه العائلة؟.
رن هاتفه؛ فتغير وجهه في لحظات، فقد عرف المتصل.
لكن من هو المتصل؟ ولماذا كل هذا الغضب؟
إنه نديم، ذلك العاشق الكاذب، الذي فر هاربًا بقلبها.
لكن قلبه بقي معلقًا بها، ولم ينسها؛ لكي يعيش حياته، لم تمحُ ذاكرته ملامحها، فهو يتعذب من أجل أن يراها.
لم يرد عليه، بل أغلق الهاتف في وجهه بعنف، لم تمر لحظات حتى دق جرس الباب.
- يفتح باسل الباب، فيجده أمامه واقفًا، لقد عاد من فرنسا من أجلها، صرخ في وجهه:
- ماذا تريد الآن؟.
هل أخبرتك والدتك أنها عادت للقصر؟ فرجعت تجر مكرك وخداعك لنا.
يرتفع صوته بالصراخ معه، فتسمع تميمة صوت العجوز ، تهبط مسرعة للأسفل، لقد كانت تظن أن يوسف أزعجه.
لم تعلم أن حب عمرها، وأميرها جاء من أجلها، لم تعلم أن اللقاء؛ سيكون قريبًا هكذا.
وقفت في ذهول تقول: هناك خنجر يطعن قلبي، يمزق شريان ونياط فؤادي، وهناك دمعة متحجرة في مقلتي؛ إنها تخشى السقوط والإنهيار، هناك حزن دفين يئن في صمت؛ لكنها تلتزم بالهدوء.
لقد قررت أن لا تبوح بشيء، تقف أمامه في شموخ، العين في العين، والنظرات تتلو العتاب والرجاء، الصمت يصرخ بالبكاء،

هو يركع أمامها يطلب السماح، يعتذر لأنه رحل دون وداع، يعتذر لها بكل اللغات.
لكنها ترفض أن تستمع للكلام، فنبض قلبها قد ذاب، أهلكه السجان، تشير بيدها إلى الباب، وتقول بكبرياء، لم تحمني وقت العاصفة، فكيف تضمن لي عدم الانكسار؟.
لقد رحلت وتركتني وحيدة، وأنا في أمس الحاجة إليك، ذلك الوقت كنت فيه ميتة، أحتاج للعطف والشفقة، لماذا عدت؟ ارحل يا هذا في هدوء، فالقلب الذي أحببته قد مات.
ينهض من ركوعه، وهو عاجز عن الكلام، لم تنظر لعينيه، لم تسامح نبضات قلبه المتسارعة، لم تشاهد على وجهه الحب والهيام.
خرج من القصر يجر أذيال الخيبة، يجر انكسار رجولته من تحت سجاد أنوثتها.
لقد أصبحت الآن؛ امرأة من نار، امرأة لن تكون لقيطة مرة أخرى.
يقف باسل مذهولًا بها، فهو يعلم أن مرارة الحب، تعلقم فمها الصغير، وأن صوت تحطيم قلبها؛ يسمعه البعيد قبل القريب.
في البهو الواسع؛ يجلس يوسف على أريكة قطيفة حمراء، يظن أنه أصبح في عهد السلاطين؛ وهو أحدهم، يمكث هاديًا؛ كأن لا شيء يحدث من حوله، وقد توقفت عليه عوامل الأزمان.
يصعقه صوت تميمة؛ التي طلبت منه في حدة أن يرحل من هنا، لقد قررت أن تبحث وحدها دون أية مساعدة من أحدهم، خرج من القصر غاضبًا منها؛ يندم على معرفتها، ليته لم يقابلها في حياته، ليته لم يتعرف على باسل.

جلست، تتطلع في وجه العجوز، كأنها تشتاق إليه، تشتاق إلى ملامحه الكبيرة، لقد تغيرت كثيرًا، أصبحت تنظر في عينيه، وتبتسم له، وتمزح معه، لقد اعتادت نظراته لها، لقد مر شهر كامل عليها؛ وهي تجلس في بيت العجوز سعيدة.

تنتظره عند عودته من العمل، وتخرج معه في رحلات كثيرة، ربما قررت أن تتقمص دور ابنته بالفعل، لم تعد تقول له: غير كلمة (بابا) حتى ألفت أذنه هذه الكلمة.

وفي ليلة مقمرة جلسا معًا؛ هي وهو، طلبت منه أن تذهب إلى بيت تلك الخادمة؛ كي تقابل ابنها؛ عساه يعرف معلومات عن أمه.

تغير وجه باسل، وظهرت معالم الحزن عليه، لقد نسى هذا الموضوع؛ بل ظن أنها لم تعد تريد أن تبحث في الماضي.

لكنه طلب منها تجهيز حالها، ففي الصباح سوف يذهبان معًا إلى بيت الخادمة، وسوف يجعلها تقابل ابنها.

لقد فرحت كثيرًا، رن هاتف العجوز؛ الدكتور ماجد يتصل به؛ ليطمئن على مريضته؛ التي خطفت قلبه.

ترتسم على وجهها ألف علامة حزن، فهي تعلم أن ماجدًا طبيب ماهر وبارع، لكنه ليس حبيبًا لها، فقد واجه قسوة الحياة مثلها، لكنه ليس فتى أحلامها، فمعالم وجهه كبيرة، وتحمل من القسوة والعنف الكثير والكثير.

تبتسم للعجوز، وتنهض مسرعةً؛ تختبئ في غرفتها من مواجهة هذا الحب، فهي ترى في نظرات العجوز، علامات رضا وحب للطبيب.

يكمل حديثه مع ماجد، ويعزمه على العشاء، يرحب الطبيب بهذا الكرم؛ فمنذ أشهر لم يراها.
يغلق الهاتف ويتجه نحو غرفتها، يجدها تجلس بهدوء، وتتطلع نحو قصر نديم، كأن عينيها تلمع بالدموع، وروحها تحلق فوقه، تحتضن يداه خدها؛ ليقول لعينيها: كم هي جميلة!.
هل سقط العجوز في حبها؟ أم تختبئ خلف هذه اللحظات مفاجأة كبيرة؟ .
يُخبرها أن ماجدًا سأل عنها، وأنه ضيفها غدًا، وعليها أن تقابله وتعطيه فرصة، ربما يستحق قلبه فرصة، ربما روحها المعذبة تجد وليفها.
تبتسم في وجهه، وتهز رأسها بالموافقة، كانت النجوم في السماء تلمع لها، والقمر يَبرزُ ضوؤه عليهما، الشيء المشترك بينهما هو حبهما لبعضهما البعض، ذلك الحب العذري الذي لم يعترف به يوسف.
فقد خرج غاضبًا نحو بيته، وعندما وصل غرفته، أخذ يصلي ويبكي في صلاته، يدعو الله أن يفك عنه هذا الكرب، فبرغم حبه لها؛ إلا أنها كانت مذنبة أمامه، وفي موضع لا تحسد عليه. - عندما هدأ من غضبته؛ أخذ يستغفر ربه ويتوب إليه، عساه يتقبل منه وينسيه هذا الحب، ثم خلد إلى النوم.
أرخى الليل ستائره على الجميع، وترك كل منهم يرسم وجعه وألمه في صورة حلم أو كابوس.
أشرقت الشمس بضوئها الذهبي؛ لتعلن أن اليوم سيكون لتميمة؛ التي ارتدت فستانًا بلونها، وتحجبت بأشعتها؛ لتقود سيارة أبيها؛ الذي ينتظرها وهو مسرور.

عندما وصلا لبيت الخادمة (رضا) التي ألقتها بيدها أمام باب المسجد.
تخيلت أنها كانت امرأة شمطاء قبيحة الملامح، قاسية القلب والطباع، لكن عندما جلست في بيتها؛ شمت رائحة هي تعرفها؛ كأنها رائحة ياسمين أو ورد جوري.
استقبلهما ابنها الوحيد، ورحب بهما كثيرًا.
حكت تميمة لابنها كل القصة، وطلبت منه أن يساعدها إن أمكن، اغرورقت عيون (عبدالله) وبكي.
فهو يعلم قصتها، لقد روت له أمه، هذه القصة عشرات المرات.
دخل إحدى الغرف، فمكث بعض الوقت، ثم خرج يحمل في يده صندوقًا قديمًا، فقد كان بداخله حياة تميمة وباقي وجعها.
- قال لها: كنتُ أبحث عنكِ كل يوم، أنا وأمي كنا مظلومين. فسامحي أمي، أرجوكِ سيدتي.
أخذت الصندوق منه ونهضت، ووعدته أنها ستعود مرة أخرى.
لكن على السلم، شاهدت ظل رجل يتحرك بسرعة، إنه يوسف، قد جاء؛ ليعطي عبد الله حقيبة أمه، وتلك الأوراق القديمة. نظر لها ولم يسلم عليها، لكنه سلم على باسل بيده، وقلبه سلم عليها رغمًا عنه.
فتح عبدالله الحقيبة أمامها، وأخرج الأوراق والمفتاح الصغير والكيس الملفوف.
- قال: تفضلي سيدتي هذه الأوراق أيضا هي لكِ.
حملت كل هذه الأغراض بين يديها الصغيرتين، ورحلت في صمت تام. أعطى العجوز لعبد الله بعض النقود؛ ليشكره، لكنه

رفض وطلب منه، أن يطلب منها أن تسامح أمه، فهو يراها في منامه تبكي وتتعذب.
هز باسل رأسه وقال: إن شاء الله ستسامحها.
قفل باسل عائدًا بسيارته نحو قصره، وبجواره تميمة تتطلع إلى الصندوق والأوراق في صمت مبالغ فيه.
ما أفزعه! أنه عندما وصلا إلى القصر، خرجت مسرعة نحو القصر، وفي يدها الصندوق والأوراق، واتجهت لغرفتها مباشرة، دون أن تنتظر ردة فعل باسل، أو حتى تنتظر أن يفتح معها الصندوق.
ربما كانت تريد أن ترى أمها وحدها، تريد أن تسترجع عمرها الضائع وحدها.
أغلقت الباب خلفها، ووضعت الصندوق على الأرض، وفتحت الأوراق والكيس، كانت تخرج منهم رائحة الياسمين والورد.
وجدت صورة لامرأة تشبهها كثيرًا، تجلس على كرسي متحرك، عرفت أن هذه المرأة هي أمها، واسمها (زهرة محمد) وأن والدها - رحمه الله - كان اسمه (شادي الشريف) وأن جدها أبا أمها مازال على قيد الحياة، كما شاهدت صورة زفاف أمها وأبيها، وشاهدت صورة لجدتها؛ التي أمرت بأن تلقى في الشارع، لقد شاهدت الجميع.
ابتعدت قليلًا عن الأوراق والصور، وجلست على الأرض، وظلت تبكي وتبكي، لا تعلم، هل هذه دموع الفرح أم دموع القهر والحسرة؟.
كانت تحتضن صورة أمها، تقبلها وتعتذر لها عن تفكيرها السيء بها.

أخذت تدعو لها بالرحمة، وتتوسل إلى الله، أن يغفر لوالدها ووالدتها، ثم أمسكت المفتاح الصغير، وقررت أن تفتح الصندوق، وقبل أن تمد يدها نحوه، سمعت صوت أقدام تقترب من غرفتها، خطوات هي تعرف صاحبها.
نعم، تعرف مصدر تلك الأقدام، إنه باسل يحاول معرفة الحقيقة، لكن أصوات الأقدام ابتعدت عن باب الغرفة، كأنها كانت تبحث عن شيء ما.
أمسكت المفتاح واقتربت من الصندوق، وببطء شديد أدخلت المفتاح في الصندوق وفتحته، صدمها هول ما رأت.
لقد وجدت عدة خطابات وفستان زفاف، وصور لوالدها ووالدتها، وبعض قطع المجوهرات الخاصة بأمها، وزجاجة عطر برائحة الياسمين والورد.
كانت رائحة العطر منتشرة في كل مكان، حتى غطت على رائحة السنين التي مرت على الصندوق.
الدموع في عينيها تتلألأ، يصرخ قلبها ويردد: ما ذنبها؟ ما ذنبي أنا؟ لقد كانت أمي معاقة يا جدتي، فما الذنب الذي اقترفته أنا؟ كنت أعتقد أنني لقيطة طيلة عشرين عامًا، كم أنتِ امرأة قاسية!
تنهمر الدموع من عينيها بلا توقف، تبكي وتئن كطفل فقد حضن أمه في ليلة مظلمة، لقد استغرقت وقتًا طويلًا حتى تصل لاسمها الحقيقي، لقد وجدت شهادة ميلادها الحقيقية. اسمها (شمس شادي الشريف).
تذكرت أن جدها مازال حيًا يرزق، ووجدت عنوان منزله، لقد وجدت أصلها مع بقايا حياتها.

لم تحاول معرفة اسم جدتها، فقد كرهتها؛ صبت عليها غضب وتعب هذه السنين.
وضعت كل شيء في الصندوق كما كان، إلا عنوان جدها، وصورة أمها وأبيها وجدها.
ألقت بجسدها الهزيل على سريرها ونامت، بل قررت أن تستسلم للنوم.
يقولون أن بعض القلوب الطيبة، تهرب بالنوم من ظلم البشر لها، كأنها تذهب إلى عالم آخر غير عالمها المظلم.
لكن النوم والهروب، لم يكونا حلًا (ليوسف) الذي كان يتألم قلبه قبل روحه، لقد قرر أن يقطع أي صلة بينه وبينهما.
- يكفي ما وجد من عذاب وضعف، لقد علم أنها من عائلة غنية، كما أنها تربت في بيت رجل ثري، كانت لا تطلب شيئًا؛ بل كل الأشياء تأتي قبل أن تطلبها.
رأى أن فقره واحتياجه، سوف يجعلها ترفضه، لم يصدق أنها لا تنتمي لهذه الطبقة، بل عاشت كأي فتاة من طبقة فقيرة، كما أنها خرجت من الثانوية، ولم تكمل تعليمها بسبب المال، وأنها عملت خياطة؛ لترعى أم تميمة.
لم يشاهدها على حقيقتها، ولكنه معذور فعلمه وثقافته الدينية؛ جعلته ينظر للموقف بنظرة الشرع، وهذا حرام في نظره، أن تعيش فتاة، مع رجل غريب في بيته، على أنها ابنته، شوهت بداخله الحب، لذلك قرر أن ينسحب من حياتها، وطلب نقله لبلد آخر.
- لا أعلم، لماذا يفر الجميع منها وقت الاحتياج؟.

لقد فر (نديم) هاربًا منها، وهي في أمس الحاجة إليه، ثم عاد يبكي من ألم قلبه.
وها هو (يوسف) يقرر الرحيل بعيدًا، فهل سيعود كما عاد غيره، يجر ألم قلبه وضميره؟ لا أعلم.
ربما لن يعود، فمثله لديه القوة على تحمل الألم.
الباب يطرق بصوت عالٍ، يعلن قدوم الضيف، لقد حان وقت العشاء.
لكن الضيف جاء مبكرًا، جاء يحمل في يده باقة زهور جميلة، وفي عينيه نظرات أمل وتفاؤل وحب.
يستقبله باسل بالتحية والسلام والأحضان، يقول له: أهلًا وسهلًا ومرحبًا بطبيبنا الهمام، أنرت بيتنا المتواضع.
يرد ماجد التحية بأفضل منها، ويقدم له باقة الزهور.
- يضحك وهو يقول: هل هذه الورود لي.
يبتسم ماجد وهو يردد:
- أنتَ تملك في بيتكَ هنا، أجمل وردة في العالم.
يجلسان معًا، يرسل باسل أحدهم؛ ليطلب منها أن تنزل؛ لتسلم على ضيفها.
فتستيقظ على صوت الخادم، وهو يطلب منها النزول، فتسرع لترتدي ثيابها الأنيقة، كأنها تريد أن تخبر الطبيب؛ بأنها وجدت عائلتها، وأنها لم تعد تستحق الشفقة منه.
ارتدت أجمل فستان لديها، وارتدت أيضًا ذلك العقد الثمين؛ الذي تركته لها والدتها.

لكن القلب الذي أهداه نديم لها، مازال معلقًا برقبتها، يرفض الإنسحاب، وقد ظهر القلب واضحًا جليًا أمام الجميع، يعلن أن حب (نديم) مازال مشتعلًا في صدرها.
تحاول نزعه؛ فتعجز يدها، لكن دموعها تسقط قبل يديها، كأنه يقول لها: لا تنزعيني من هنا؛ فأنا باقٍ مثل حبك له.
عندما شاهدها (ماجد) نسي عالمه، ومن أين أتى؟.
ونسي أيضًا أنه في بيت باسل، ونهض مسرعًا نحوها، يمد قلبه قبل يديه لها، واحتضن بكفيه كفها.
أخبرها كم أنها جميلة وعذبة!، وكم أنه اشتاق لمعرفة أخبارها!.
أخبرته أنها عرفت من تكون؟ وأنها وجدت جدها وعائلتها، وأنها من أسرة ثرية.
وأخبرته أنها ستدعوه قريبًا، في بيت جدها.
نظر باسل لها؛ فوجد في عينيها نظرات تحدٍ وكبر، عرف من خلال تلك النظرات؛ أنها قررت أن تذهب لجدها وتعيش معه، لقد عصر الألم قلبه، لم يتخيل منظر البيت بدونها، لقد عصف به الوجع، وتحول لشعلة نار مشتعلة.
تناول الجميع العشاء في صمت تام، كأن كل واحد فيهم يفكر في أمر آخر، أو ربما يهرب من فكرة معينة؛ تدور في رأسه.
فماجد يتطلع إليها، ويود أن يخبرها كم هو يحبها!.
وهي تهرب من نظراته، وترفض هذا الحب، فهي لا تؤمن بالحب.
والعجوز قلبه يشتعل من سيرة الفراق، ويخشى أن يموت وحيدًا بدونها.
قبل أن يغادر الطبيب، تملكته الجرأة، وطلب يدها من العجوز.

وأخبره أن قلبه تعلق بها، ويريد أن تكون زوجته.
لم يعطه إجابة تريح قلبه الحزين، فهو يعلم أنها سترفضه. لأنها الآن مشغولة بفكرة الذهاب لجدها؛ والعثور على العائلة.
سلم الطبيب على باسل، وشكره على كرم ضيافته، ثم رحل وترك قلبه ينبض بجوارها.
هي لم تبالِ بما يحدث حولها، فقد ذهبت لغرفتها؛ وجلست على الأرض والصور والأوراق حولها؛ لكنها تمسك بيدها ذلك القلب الذهبي.
تنصت لصوت يأتي من بعيد، صوت قلب يئِن بالحب والشوق ويقتله الوجع؛ كأنه صوت نديم؛ ذلك العاشق المعذب، يغني كعادته كل مساء، لكن تلك الأغنية جديدة، فهي تتحدث عن الفراق، ويدور في ذهنها العديد من الأسئلة، وهي تستمع لها.
فجأة تسمع دقات قلبها ترتفع وتهبط؛ كأنها تصارع الموج.
لقد تذكرت هذه الأغنية، فقد غناها لها عندما رحل عنها، وهي في المستشفى.
لقد قرر الرحيل مرة أخرى، توقفت ضربات قلبها قليلًا.
عندما سمعت صوت العجوز؛ يستأذن للدخول عليها، فتحت له الباب، وطلبت منه أن يجلس بجوارها؛ حتى يتعرف على عائلتها الجديدة.
جلسا معًا ينظران في الصور والأوراق، لقد عرف مكان جدها، أخبرها أنه حي قديم وفقير.
طلبت منه أن يذهب بها إلى هناك، فهي تود أن ترى جدها.
هز رأسه بالموافقة، لكن يوجد في نظراته لها ألف سؤال.
عندما نظرت إليه ابتسمت، وقالت:

- أخيرًا سترتاح مني ومن معاناتي، ستلقي بي في بيت جدي ثم ترحل؛ وتتركني يا عم باسل.

تحول وجهه فجأة للون الأحمر؛ من شدة الغضب، وصرخ في وجهها،

- أول مرة تقولين لي كلمة عمي لماذا؟ لماذا تقولينها الآن؟ هل نسيتِ من أنا؟.

حاولت أن تهدئ من غضبه؛ فاعتذرت له.

- قالت: أعلم من أنتَ؟ أنتَ أبي؛ الذي حافظ عليّ منذ سبع سنوات، أنتَ ذلك الجبل؛ الذي كنت أستند عليه وقت ضعفي.

أعتذر أبي منك رجاء لا تغضب.

- هز العجوز رأسه، وهو يقول: لن أتنازل عنكِ، كما أنني لم ولن أنده لك باسم (شمس) هذا.

ونهض من جوارها؛ مسرعًا نحو غرفته، لكنه وقف على باب غرفتها ونظر لها، ثم قال: (لن يأخذوكِ مني، ولن أسمح لجدك أن يحرمني منك، فأنتِ سر حياتي هنا، لو رحلتِ؛ سترحلين على جثتي) وأغلق باب غرفتها ورحل.

لقد كانت قاسية معه، هي تعلم مدى حبه لها، ومدى ارتباطه بها، كيف فكرت أن تبتعد عن رجل ضحى من أجلها بالكثير؟. هل تحول قلبها الذي كسره الحب، إلى زجاج يجرح من يلمسه أم ماذا؟.

نهضت مسرعةً تتجه إلى غرفته، لن تدعه ينام غاضبًا منها، فهي تعلم أنها مصدر السعادة له، وأنه بالفعل يعتبرها ابنته.

دخلت تميمة غرفة باسل، فوجدته يبكي، مثل طفل صغير، والدموع تنهال على خده، مثل النهر، يقودها كبرياء رجل.
جلست بجواره ومسحت بكفها دموعه، وطلبت منه أن يسامحها، أن يغفر لها ذلتها.

- قال في صوت منكسر: آه لو تعلمين، كم أحبك يا ابنتي؟. لقد عوضني الله بكِ.
- قاطعته قائلة: أعلم ذلك يا أبي، وأعترف لكَ أمام الله بالفضل والجميل، كنت لي مصدر الأمان والرعاية، لم تخذلني يومًا.. لكنني أود رؤية جدي، واسترجاع اسمي وحقي، أود أن أنتقم لأمي، تلك المرأة التي عانت كثيرًا من أجلي، ساعدني أبي أرجوك.

هز رأسه بالموافقة، وقرر أن ينهي قصتها الحزينة، لابد أن ينتهي هذا العذاب. ربت على كتفها، وتمنى لها أحلامًا سعيدة.
نهضت من جواره، بعد أن قبلت يده، وتمنت له أحلامًا سعيدة.
لجأت للنوم؛ لكي تهرب من صوت نديم، ذلك الصوت الشجى؛ الذي ظل يغني حتى الصباح بلا توقف، لم تغمض عينيها؛ فصوته أشعل حبها من جديد، كانت تراقبه من خلف زجاج النافذة، يحمل في يده حقيبة سفر، لقد قرر الرحيل مرة ثانية، كانت تردد لماذا يا نديم؟ لماذا؟ استسلمت وابتعدت عني، قبل أن تطلب الصفح مني، كنت قاسية معك من أجل كرامتي، هل تظن أن ما تفعله هو الحل؟.

- لا يا حب عمري؛ كان عليك أن تواجهني، أن تطلب مني السماح ألف مرة.

هزت رأسها قليلًا، بعدما تأكدت من رحيله. آه، لقد شعرت بالأسف والحسرة، وقررت أن تدفن حبه، وأن تنهي تلك العلاقة، نزعت القلب الذهبي، من رقبتها وألقته في الصندوق، قائلة: وداعًا يا من ظننته حبي، فلا آسف عليك ولا دموع بعد اليوم.

واتجهت تجهز نفسها، حتى لا يشعر باسل بوجعها، لقد وعدها أنه سيذهب اليوم معها إلى بيت جدها، ارتدت أجمل فستان لديها، وانطلقت تعدو كالفراشة نحوه.

عندما رآها اهتزت مشاعره، وسقطت الدموع من عينيه.

اليوم ستذهب لجدها وسيراها، لن يتركها ترجع معي، لقد تذكر كلام جدها معه، فقد زاره منذ يومين، وطلب منه أن يتركها له، لكن جدها قال له بعد عناء: اتركها هي تختار، وأنا سأوافق على ما تختاره، أعلم أنكَ تحبها، وأنكَ مرتبط بها، لكن لا تنس أنني جدها وأحق بها منك.

يسرح بخياله وهو يردد: ستختار جدها؛ فهو من دمها.

أمسكت يده، وقالت:

- هيا يا أبي.

قاد العجوز سيارته بقلبه، وليس بيده، الصمت كان أساس الحوار بينهما، فهي تتخيل جدها وكيف سيرحب بها؟ ومدى حبه لها وشوقه لرؤيتها.

وهو يتخيل لحظة الوداع والفراق، الألم لا يحتمل؛ فقلبه يكاد ينفجر من هول الموقف.

وصلت لبيت جدها أخيرًا، وطرقت الباب، ووقفت تنتظر من سيفتح لها! فتح الباب رجل عجوز؛ نظر لها بدهشة.

- وقال لها: من أنتِ؟.

- نظرت له، وقالت:

- (شمس شادي الشريف) ابنة الدكتور (شادي الشريف) وابنتك (زهرة محمد) أنا حفيدتك، التي دفعت ثمن حقد جدتي عليكَ.

أنا من دفعت ثمن كرهكم وحقدكم على بعضكم البعض... اغرورقت عيونه بالدموع، وطلب منها الدخول، دخلت (شمس) بيت جدها؛ الذي وجدته قديمًا ومتهالكًا، لكن بداخله تشعر بحرية وانتصار.

ارتدى جدها نظارته، ونظر في وجهها، ثم قال:

- شمس ابنة زهرة واحتضنها، أنتِ تشبهين أمك كثيرًا، رحم الله أمك.

بكت في حضنه بكاءًا مرًا، ضمته بكل قوتها، أرادت أن تغرس جذورها في أرضه، أجلسها بجواره، وأخذ يمسح دموعها ودموعه، طلب منها أن تسامحه، فهو بحث عنها ولم يجدها.

سألها كيف عرفت مكانه؟ وكيف عاشت بدون أهل؟ وهل عانت في حياتها من الفقر والحرمان؟.

كانت الدموع تتساقط من عينيه، لكنها لم تندمج معه في الحوار، تبحث عن شيء مهم، نظرت حولها فلم تجد باسلًا، لم يدخل معها إلى بيت جدها.

نهضت مسرعة نحو الباب كالمجنونة؛ تبحث عنه في كل مكان، لقد اختفى، نظرت بلهفة نحو جدها وقالت: أبي كان هنا، أين ذهب؟ وجلست أمام بيت جدها تبكي.

ربت جدها على كتفها، وقال:

- حبيبتي لقد عُدتِ إلى بيتك الحقيقي.

منذ يومين طرق بابي رجل غريب، طلب مني أن أسمعه، وقص لي حكايتك بالتفصيل، منذ كنتِ طفلة فوجدك الشيخ حسن - رحمه الله وغفر له_ وجزاه الله خير الجزاء، ثم مكوثك معه.

كان يحكي لي، ودموعه تتساقط عليكِ، رأيت الحب في أسمى معانيه، لقيت الرقي والطيبة فيه.

- نعم، فأبوك هو ذلك الرجل الذي رباكِ.

لكنه قرر أن يتركك هنا ويرحل، وأعطاني رقم هاتفه والعنوان، ولك كل الحرية عزيزتي؛ أن تختاري مكانك بيننا.

فيا حبيبتي، هنا بيتك وهناك أيضا بيتك، ولقد ترك لك رسالة معي، أعطى الجد الرسالة لها، وتركها أمام البيت، ودخل يعد لها الطعام.

فتحت الرسالة وهي تبكي، كيف هانت على العجوز؟ وكيف تركها؟ لقد سبق وأخبرها أنه لن يتركها مهما حدث، كيف ستعيش بدونه؟ كيف ستحصل على حقها ممن ظلموها بدونه؟.

لقد عاشت معه سبعة أعوام، كان كل شيء لها؛ الأب والصديق والأخ والحماية، لقد قرأت الرسالة، وهي تتلخص في ثلاث كلمات (لن أتركك ولن يفرقنا إلا الموت).

ما هذا العذاب! هل مكتوب عليها الفراق! مكتوب عليها الهجر والحرمان.

سمعت صوت جدها من الداخل، ينادي على (شمس).

لقد نسيت أنها من الآن؛ هي شمس ابنة الطبيب شادي الشريف.

نهضت ودخلت متجهة إلى جدها، والدموع تتساقط من عينيها، وجدت أن جدها طبخ لها طعامها المفضل.

فجلست تتناول طعامها، وتتحدث معه وتبتسم.

في الناحية الأخرى من الشارع، يقف باسل بسيارته؛ يتطلع إلى ذلك البيت المتهالك؛ الذي ضم في حضنه ابنته وفرحته، كيف يدخل قصره بدونها؟.

كان قلبه يعتصر من شدة الألم، كان ينتظر أن تهاتفه، وتطلب منه أن يأخذها معه.

جلس طوال اليوم، أمام بيت جدها، دون أن يتحرك بسيارته.. أقبل الليل يغطي جراحهم وعذابهم، شعر باسل بالإجهاد والتعب، فقرر أن يعود إلى قصره الذي سيصبح قبره بعد اليوم.

فجأة رن هاتفه.

هذا الصوت الناعم صوتها.

نعم، هي ابنتي، يجيبها بصوت سكنه الموت: نعم حبيبتي.

أنا هنا أمام بيت جدك، أنتظرك تعالي؛ لنرجع إلى بيتنا.

تصمت وتطلب منه الحضور لبيت الجد؛ فهناك أمر عاجل، شعر بالحزن في صوتها، وتخيل الدموع في عينيها، فأسرع بالنزول من السيارة، وعبر الطريق بإتجاهها؛ دون الإنتباه؛ لمرور إحدى السيارات الضخمة؛ التي رفعته من الأرض إلى السماء، وهبط إلى الأرض مرة أخرى.

أمام عينيها؛ تشاهد موت باسل بالبطيء.

تصرخ بكل قوتها، تهرول مسرعةً نحوه، تضم جسده النحيل بين أحضانها وتصرخ، الدماء تغطي وجهه، وملابسه ممزقة، ينظر إلبها؛ ويطلب منها السماح، ويجذب يدها بشدة.

لقد أخبرها من قبل (أن الموت هو من يفرقهما).

حمله شباب الحي، وذهبوا به إلى المستشفى، و بعد الفحص أقر الأطباء أنه بين الحياة والموت.

يردد اسم (نور وتميمة) ويطلب رؤيتهما.

- أخبرهم الطبيب: أنه يصارع الموت.

طلب الجد منها؛ أن تتمالك نفسها، وأن تدخل وتزرع الأمل في قلبه، ربما يتمسك قلبه بالحياة.

هرولت إلى غرفة العناية المركزة، أقدامها لا تحملها، دخلت وجلست بجواره، مسحت بكفها الصغير على وجهه، قبلت جبهته لأول مرة.

- ثم قالت: أبي أنا أحبكَ، أحب كل تفاصيل حياتي معكَ، حتى الموت لن يفرق بيننا، فأنتَ تسكن بداخلي، أخبرني كيف أعيش بدونك؟.

فتح عينيه، وطلب منها أن تعود إلى القصر، وأن تقرأ وصيته ومع الوصية رسالة؛ لابد أن تقرأها وتسامح.

قبل أن يغمض عينيه للأبد، طلب منها أن تمسك بيده، فأمسكت يده بقوة، حتى أغمض عينيه، وهدأت نفسه، وارتسمت على شفتيه بسمة خفيفة، تعلن نهايته، وبداية رحلة جديدة.

كان الطبيب بجوارها، يريد أن يخبرها: أنه مات بسلام، لكن دموعها وصراخها؛ يهز المستشفى، تصرخ صرخات متتالية، بلا توقف، تصرخ للماضي والحاضر والمستقبل.

لقد فقدت كل شيء، فقدت العجوز الذي علمها الحب، علمها العطاء بلا مقابل، لقد تيتمت للمرة الثالثة.

يضمها جدها، فتسقط على الأرض مغشيًا عليها...

لقد فقدت نقطة الإتصال بالعالم، فقدت الحياة.

يهرول الطبيب ماجد نحوها، يحملها بين يديه، لقد كان أحد الأطباء الذين عالجوا باسلًا صديقه، فأخبره أن باسلًا مات.

استخرج له شهادة الوفاة، وتصريح الدفن، ضم القبر بين باسل وزوجته. لقد شعر بالسلام، ونام وهو هادئ الضمير.

أمّا تميمة؛ فقد قتلها الحزن، سرق منها لحظات السعادة، رجعت إلى القصر، مع جدها والطبيب ماجد، دخلت غرفة باسل، فشمت رائحة عطره، لمست ملابسه، حملت بين أحضانها صورته، لم يكن رجلًا غريبًا عنها، بل كان والدها الحقيقي.

أبوها الذي عاشت بين رعايته وحمايته، ومر أسبوع وهي في حالة ضياع، لا تدري ماذا تفعل غير البكاء، لقد انفجر بركان الدموع في عينيها مرة أخرى.

على غفلة صرخت؛ تذكرت يا جدي؛ أبي ترك لي وصية ورسالة في خزنته، حملت مفتاح الخزنة، وفتحتها وجدت ملف أوراق وجوابًا.

أمسكت بالجواب وفتحته، وجدت بداخله ورقتين، مكتوب في إحداهما: (عزيزتي تميمة، أرجوكِ سامحيني، فأنا الآن بين يدي الله، وبدأ يقص عليها قصة زواجه من ابنة عمه ووفاة طفلته، وشعوره نحوها ومدى ارتباطه بها......).

هطلت الدموع من عينيها، ومزقت رسالته، وفتحت ملف الوصية؛ لتجد أنه كتب كل أملاكه وأملاك زوجته لها، وطلب منها أن تعيش في القصر بقية عمرها.

طلب منها أن تهتم بالحديقة وتزرعها، وأن تزين قبر ابنته بالورود.

لقد ألقى على عاتقها مهمة صعبة، حيث طلب منها؛ أن تعيش على ذكراه بقية عمرها.

امتثلت لوصيته، وقبلت أن تكون ضحية الوفاء والحب.

رفض جدها قرار بقائها في القصر، وطلب منها الذهاب معه.
لكنها تمردت على الانصياع؛ لكلام جدها، وقررت أن يكون اسمها (تميمة باسل).
بدأت تفقد عقلها؛ وتلقي باللوم على جدها، لقد مات العجوز بسببها، مات لأنها كانت تريد الذهاب لجدها؛ جدها الذي لم يبحث عنها، لم يحمها مثله.
فبدأت تعاني من الوحدة، بدأت تتذكره، خصوصًا عندما كانت تبتعد عنه؛ وتهرب لغرفتها، بدأت تلوم نفسها.
شعر الطبيب بأنها تمر بأزمة نفسية، لقد تحولت مشاعرها من مجرد حب أبوي؛ لعشق وهيام؛ لذكرى رجل مات، كانت ترى في موته؛ التضحية والوفاء.
قرر أن يقنعها بالسفر، والابتعاد عن القصر، رفضت.
لكنها استجابت؛ لإلحاح جدها، وتركت القصر، لكنها لم تستطع العيش؛ في مكان مات فيه باسل.
قررت أن تذهب لبيت جدتها؛ فهي تملك وصية منها؛ بأنها الوريثة الشرعية لعائلة جدتها وأمها.
عندما ذهبت هي وجدها، كانت المفاجأة، حيث وجدت (شوقي وأسرته) يعيشون في بيت جدتها، لقد استولى على كل أملاكها.
عندما رآها ابتسم في وجهها، ظن أنها جاءت؛ ليساعدها بعد وفاة والدها.
تعجب عندما وجد جدها يقف بجوارها

- سألها: أهلًا بكِ ومرحبًا، سررت كثيرًا بزيارتك هذه، ما أخبارك تميمة؟ لكن كيف تعرفت على الأستاذ محمد؟.

- نظرت له، وقالت: أنا شمس شادي الشريف، أمي اسمها زهرة محمد، وجدتي هي فوزية هانم أختك، التي ألقتني قطعة لحم حمراء في منتصف الليل في الطريق، لم تحترم صلة الدم التي بيننا، ولم يعطف عليّ قلبها، استغلت ضعفي وقلة حيلتي.

لكن عشت، وأرسل الله لي من يحميني منكم، جئت اليوم؛ لأستلم ميراث أمي من جدتي.

لم يصدمه كلامها؛ بل كان يعلم بحقيقة قصتها، فعندما شاهدها في الحفلة، شاهد زهرة ابنة أخته أمامه، فملامحها شديدة الشبه بأمها، ففكر أن يبحث خلفها، ويعرف قصتها، فعلم أنها ابنة زهرة، كتم في نفسه الغضب، ثم ابتسم.

- وقال: اثبتي لي أنكِ شمس ولستِ تميمة، أخرجت من حقيبتها كل الأدلة والبراهين؛ التي تثبت أنها شمس شادي الشريف.

- أخذ يقهقه بصوت مرعب، ويقول:

- لقد كتبت لي أختي كل أملاكها بيعًا وشراءً، ليس لك شيء هنا، هيا ارحلي.

لم تغضب من كلامه، بل استمسكت بهدوئها أمامه، ورحلت دون كلام. ظن جدها، أنها استسلمت، فهذا الرجل لئيم وماكر، لن تستطيع الحصول على حقها منه، لم يعلم أن باسلًا - رحمه الله- ترك لها خطة في الورقة الثانية؛ لتحصل على حقها منه كاملًا.

قامت بإلغاء كل التعاملات معه، في الشركات التي ورثتها عن باسل، وذهبت لمحامي صديق قديم، أعطته كل البيانات والأوراق والوصية، وبدأت الهجوم عليه.

لقد كان مكروهًا من الجميع حوله، الكل يحاول الهجوم عليه؛ وأخذ حقه منه، شجعتهم بجرأتها عليه، وبرفع قضايا في المحاكم، تصدر اسمه الصحف والمجلات، وبدأ يخسر عمله.
شعر أنه في مرحلة السقوط للهاوية، فلجأ للمكر والدهاء.
ذهب إليها وعرض عليها التصالح؛ بجزء من نصيبها، مقابل أن تعلن للجميع عودته؛ للتعامل مع شركاتها، لكنها رفضت عرضه؛ وكلها إصرار وعزيمة أن تسجنه، فهو شخص لا يخاف، يظلم الناس، ويأكل حقوقهم، كان محاميًا فاسدًا، لا يهمه إلا المال، ثم استقال ودخل دائرة رجال الأعمال.
بعكس ابنه (جمال) فهو شاب صالح، يخشى الله في تعاملاته، يعشق تراب بلاده، كان يعلم أن عمته أخت أبيه لديها حفيدة، وكان يقف في وجه والده أمام ظلمه، لكن علاقته بأبيه سيئة، بعكس علاقته بطليق عمته، كانت جيدة، يلجأ إليه في بعض الأوقات.
لقد شاهدها مع جدها، فأعجب بأدبها وأخلاقها، وجمالها ورقتها، ولكن أكثر شيء جذبه لها، هو وقوفها في وجه أبيه الظالم، فقرر أن يساعدها من بعيد؛ لتأخذ حقها، لم تكن تعلم أنه ابن شوقي، فقد كانت معجبة به، تسأل جدها عنه باستمرار.
وفي يوم صيفي جميل؛ خرجت من قصرها إلى المحكمة؛ التي تم الإعلان فيها؛ أنها (شمس شادي الشريف) حفيدة فوزية هانم، هي التي لها الحق في كل أملاكها، وأن السيدة فوزية كتبت كل أملاكها؛ لحفيدتها شمس، وأن الأوراق التي قدمها شوقي مزيفة، وطلبت منه تسليم شمس كل أملاكها التي سرقها.

كان الخبر كالصاعقة، فقد جعله يهذي، كيف يخسر أمام فتاة؟ وهو رجل معروف بالقوة والجبروت.

لقد توقف قلبه عن العمل، وسقط على الأرض؛ يتلوى من شدة الإنكسار.

لقد انتهى عصر شوقي وأخته، انتهى عصر تميمة المظلومة، لقد مات كل من كان في هذا العهد، لابد أن يبزغ عهد جديد. عهد (شمس شادي الشريف) صاحبة أكبر مجموعة شركات في الشرق الأوسط.

فتاة تملك المال والجمال والجاه، لقبها الرجال في شركاتها باسم (امرأة بلا قلب).

عندما دخل عليها الطبيب ماجد، وقف بلا حراكَ أمام مكتبها، وجدها تتطلع في الصحف، وتشاهد أخبار البورصة والأسهم.

وجد امرأة من صنع العولمة، لقد خسرت بريق عينيها، خسرت براءة وجهها، لم يجد تميمة التي أحبها، فتركها ورحل.نعم، رحل مثل نديم ويوسف وباسل، لقد رحل لأنه كان يبحث عن الحب.

نعم، فهو يبحث عن الحب! الذي لم يجده منذ طفولته، حرمه القدر من أمه، ثم من أبيه، ثم من أخته، لم يبق معه غير ذكرياته الحزينة مع زوجة أبيه.

لكن عن أي حب يبحث ماجد؟ وما نوع الحب الذي يريده؟.

هو أحبها، بل عشقها، هام على وجهه من أجلِها.

لكن الحقيقة؛ أنه أحب قصتها، أحب ألمها وانكسارها أمامه، فهذا هو التفسير الوحيد لحالته، فلماذا يرحل بعد وصولها للقمة؟.

لماذا يرحل بعد أن استغنت عن الجميع؟.

لم تجد في عالمها غير العذاب، لقد تخلت عنها جدتها، لكونها ابنة لامرأة معاقة، أو انتقامًا من أبيها.
لا، فالحقيقة أن جدتها كرهت زوجها، فحقدت على ابنتها، وحصدت الحفيدة الثمن، فلماذا تدفع هي الثمن؟.
أحبها الشيخ حسن وزوجته، فهربا بها إلى عالم مجهول بلا هوية، خوفًا أن يأخذها أحد منهما.
لا، فالحقيقة أنها كانت حلمًا قديمًا يراودهما، حلم الأبوة والأمومة، لماذا لم يبلّغا الشرطة؟ لماذا حملاها ورحلا؟.
أحبها باسل بفضيلة وعفة، لم يستغلها أو يلوث شرفها، لم يفرض عليها نفسه أو يرغمها، لم يحاول أن يتودد إليها.
لكن الحقيقة أنه أحب فيها الجمال والنقاء والطفولة، أحب ابنته فيها، أحب أن يحصل على أموال زوجته، ويدخل قصره، ويظهر أمام الناس بمظهر الرجولة.
لقد حصد حب الابنة التي قتلها بطمعه، لماذا لم يخبرها بقصة ابنته؟ لماذا اعترف لها بعد موته؟ لماذا أجبرها على التضحية؟
أحبها نديم بجنون، أحبها بعمق، أحبها لدرجة أنه ركع أمامها، لكن الحقيقة أنه أحب جمالها وبهاء مظهرها، أحب ثراء والدها ورفاهية عيشتها، أحب تعلقها به، ونظرات الإعجاب الساحرة، لكن كيف هانت عليه وتركها بين الحياة والموت؟ كيف رحل قبل أن يطلب منها السماح والعفو؟.
أحبها يوسف بلهفة، أحبها بتدين، أحبها ببراءة.
والحقيقة أنه لم يحب غير جمالها ورقتها، أحبها لقصتها وعنائها، لماذا لم يغفر لها مكوثها مع باسل؟ لماذا لم يشعر بالحب الأبوي الذي كان في قلبها؟ لماذا رحل؟.

كل من أحبوها رحلوا، لقد حولها المجتمع لامرأة تبحث عن العمل، تغرق في الحسابات والأرقام، لبست ثوبها الخشن، ونزعت ثوب الأنوثة.

لا تبحثوا عن الأنوثة، ابحثوا عن الرجولة، في عالم النساء، ابحثوا عن موقعكم في قلوب النساء، ابحثوا عن أنفسكم أولًا ثم اتهموا النساء بما تشاءون.

خرج ماجد يجر خيبته، ورحل كما رحل غيره، بلا عودة أو تراجع.

لم تلتفت ناحيته، بل رن هاتفها، وانشغلت بتحديد مكان لمصنع جديد.

مصنع يحمل اسم (تميمة القلب) هذا المصنع سيكون؛ لصنع أقراص تعالج القلوب المريضة، القلوب التي مزقها الحب، وأكلت جوفها نار الإشتياق، تلك القلوب التي عاشت على أمل، أن يومًا ما سيكون لها وليفٌ؛ يعرف معنى الحب.

أغلقت الهاتف، وأسرعت نحو المطعم، فحبيبها ينتظرها بسيارته الفارهة، فاليوم سيطلب يدها، سترتدي أغلى خاتم على وجه البرية، وتسافر حول العالم معه، بسفينته العملاقة، التي تحمل جواز مرور؛ لكل عواصم العالم.

السيرة الذاتية

الاسم : عفاف علي عبد القادر
البلد : مصر
التحصيل العلمي :
- حاصلة على ليسانس دراسات إسلامية وعربية قسم أصول الدين / شعبة تفسير وعلوم قرآنية
- وحاصلة على دبلومة عامة تربوية
- والعديد من محاضرات التنمية الذاتية والبشرية.
المجال الوظيفي:
أعمل معلمة للغة العربية
المجال الأدبي:
- طبع لي ثلاثة كتب هي:
طفل بلا هوية
قارئة الفنجان
جريمة نائمة
الجوائز الأدبية :
- حصلت على درع(النيل والفرات)
- ولقب أديبة النيل والفرات لعام ٢٠١٩
- والعديد من الشهادات من المجموعات الأدبية.
- كما فازت روايتي "تميمة القلب" بالمركز الثالث في مسابقة فارس الإبداع العربي